تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد واله الطاهرين

واللعنة على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين

وبعد.

فإن القضية التي عرفت في تاريخ الإسلام بـ"قضية الغدير" تعتبر من أهم القضايا الإسلامية، وأشدها خطورة وحساسية. وذلك لأنها تمثل المحور والأساس الذي يتم من خلال الموقف منه تحديد الإتجاه العام للإنسان المسلم، ويرتسم خط مسيرة إلى مصيره، إن من الناحية العقائدية، أو الفكرية، أو في نطاق التشريع، أو في مجال الإرتباط الشعوري والعاطفي.

وعلى أساس ذلك كله يكون رسم العلاقات في كل ما ومن يحيط به وتحدد المنطلقات، وتتكون الارتباطات، وتتشكل العوامل والمؤثرات.

ولأجل ذلك، فإن البحث في هذه القضية، وإيضاح ما لها من أبعاد، ودلالات، والتعرف على ما اكتنفها من ظروف وملابسات، يصبح بالغ الأهمية لكل مسلم يؤمن بربه، يرجو ثوابه، ويخاف سخطه وعقابه في يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وقد جاء هذا البحث المقتضب، الذي بين يدي القاري ء الكريم- والذي نشر في سنة ١٤١٠ هـ.ق في مجلة "تراثنا" التي تصدر في عم المشرفة- ليوضح جانبا مما يعتقد أنه لم ينل قسط كافيا من العناية من قبل الباحثين والمحققين، أو هكذا خيل لكاتبه على الأقل.

وغني عن القول هنا: أن نظرة عابرة يلقيها القارئ على هذا البحث سوف تجعله مقتنعا: أنه قد كان بالإمكان اثراؤه بالنصوص والمصادر بصورة أوسع وأتم، وأوفى مما هو عليه الآن.

إذ من الواضح: أن ما ورد فيه من نصوص ومصادر ما هو إلا غيض من فيض، وقطرة من بحر، وكله يؤيد بعضه بعضا، ويشد بعضه أزر البعض الآخر..

فإلى القارئ الكريم عذري، وله خالص حبي وشكري.

ومن الله نستمد العون والقوة. وهو ولينا، وهو الهادي إلى سبيل الرشاد والسداد.

جعفر مرتضى العاملي

الغدير.. والامامة

ليتضح ما نرمي اليه، إن من المناسب قبل أن ندخل في الموضوع الذي هو محط النظر- أن نشير إلى تفسير تاريخي مقتضب لمصطلح شائع ومعروف هو مصطلح: "حديث الغدير"

فنقول:

إن كلمة "حديث الغدير" تتضمن إشارة إلى حادثة تاريخية وقعت في السنة الأخيرة من حياة الرسول الأكرم "صلى الله عليه وآله وسلم". وبالذات في الاشهر الاخيرة منها.

حيث إنه صلى الله عليه وآله وسلم قد حج حجته المعروفة ب "حجة الوداع" فلما قضى مناسكه، انصرف راجعا إلى المدينة، ومعه جموع غفيرة تعد بعشرات الألوف من المسلمين، فلما بلغ موضعا يقال له: "غدير خم".

في منطقة الجحفة، التي هي بمثابة مفترق طرق، تتشعب منها طرق المصريين والمدنيين والعراقيين.

نزل جبرئيل عليه في ذلك الموضع، في يوم الخميس في الثامن عشر من ذي الحجة بقوله تعالى: "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك"

حيث أمره الله سبحانه أن يقيم عليا إماما لأمة، ويبلغهم أمر الله سبحانه فيه.

فما كان من الرسول "صلى الله عليه وآله وسلم" إلا أن أمر برد من تقدم من الناس، وحبس من تأخر منهم.

ثم صلى بهم الظهر، وبعدها قام بهم خطيبا على أقتاب الإبل وذلك في حر الهاجرة. وأعلن، وهو آخذ بضبع على "عليه السلام": أن عليا أمير المؤمنين، ووليهم، كولاية رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" لهم.

حيث قال: من كنت مولاه فعلى مولاه "قاله ثلاث أو أربع مرات" اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله.

فنزلت الآية الكريمة: "اليوم اكملت لكم دينكم، واتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا".

ثم طفق القوم من الصحابة يهنئون أمير المؤمنين "عليه السلام"، وفي مقدمتهم الشيخان: أبو بكر وعمر وغيرهما من المعروفين من صحابة رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم". (راجع: الغدير للعلامة الأميني ج ١، ص ١٢-٩ وغيرها من الصفحات.)

هذه صورة موجزة عن هذه القضية ذكرناها توطئة، وتمهيدا للبحث الذي هو محط نظرنا، فإلى ما يلي من مطالب وصفحات.

توطئة وتمهيد

قال الله سبحانه وتعالي في كتابه الكريم:

"يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل، فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس، إن الله لا يهدي القوم الكافرين". (سورة المائدة الآية ٦٧.)

نزلت هذه الآية الشريعة في حجة الوداع، لتؤكد على لزوم تبليغ النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" ما أمر به من أمر الإمامة. وولاية علي عليه الصلاة والسلام على الناس.

كما ذكرته المصادر الكثيرة.والروايات الموثوقة...ولسنا هنا بصدد الحديث عن ذلك.

وقد يرى البعض: أن هذه الآية ق/ تضمنت تهديدا للرسول نفسه، بالعذاب والعقاب إن لم يبلغ ما أنزل إليه من ربه، وفي بعض الروايات: أنه "صلى الله عليه وآله" قد ذكر ذلك في خطبته للناس يوم الغدير، وستأتي بعض تلك الروايات إن شاء الله تعالى.

ولكننا نقول: إن التهديد الحقيقي موجه لفئات من الناس كان يخشاها الرسول، كما صرح هو نفسه "صلى الله عليه وآله" بذلك ولم يكن النبي "صلى الله عليه وآله" ممتنعا عن الإبلاغ. ولكنه كان ممنوعا منه، فالتهديد له- إن كان- فإنما هو من باب:

"إياك أعني، واسمعي يا جارة".

وهذا بالذات، ما نريد توضيحه في هذا البحث، بالمقدار الذي يسمح لنا به المجال، والوقت فنقول:

الغدير والامامة

إن من يراجع كتب الحديث والتاريخ، يجدها طافحة بالنصوص والآثار الثابتة، والصحيحة، الدالة على إمامة علي أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، ولسوف يجد أيضا: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يأل جهدا، ولم يدخر وسعا في تأكيد هذا الأمر، وتثبيته، وقطع دابر مختلف التعللات والمعاذير فيه، في كل زمان ومكان، وفي مختلف الظروف والأحوال، على مر العصور والدهور.

وقد استخدم في سبيل تحقيق هذا الهدف مختلف الطرق والأساليب التعبيرية وشتى المضامين: فعلا وقولا، تصريحا، وتلويحا، إثباتا ونفيا، وترغيبا وترهيبا، إلى غير ذلك مما يكاد لا يمكن حصره، في تنوعه، وفي مناسباته.

وقد توجت جميع تلك الجهود المضنية، والمتواصلة باحتفال جماهيري عام نصب فيه رسميا على "عليه السلام" في آخر حجة حجها رسول الله "صلى الله عليه وآله". وأخذت البيعة له فعلا من عشرات الألوف من المسلمين، الذين يرون نبيهم للمرة الأخيرة.

وقد كان ذلك في منطقة يقال لها "غدير خم" واشتهرت هذه الحادثة باسم هذا المكان. وهي أشهر من أن تذكر. وقد المحنا إلى ذلك في أول هذا البحث.

ولسنا هنا في صدد البحث عن وقائع ما جرى، واستعراض جزئياته، ولا نريد توثيقه بالمصادر والأسانيد، ولا البحث في دلالاته ومراميه المختلفة. فقد كفانا مؤونة ذلك العلماء الأبرار، جزاهم الله خير جزاء وأوفاه.

(راجع: كتاب الغدير للعلامة الأميني، وكتاب دلائل الصدق، والمراجعات).

وإنما هدفنا هو الإلماح إلى حدث سبقه بفترة وجيزة، وهو ما حصل- تحديدا- في حجة الوداع، التي نصب فيها النبي "صلى الله عليه وآله" عليا إماما لأمة، وهو في طريق عودته منها إلى المدينة.

وذلك لأن التعرف على هذا الحدث الذي سبق قضية الغدير لسوف يمكننا من أن نستوضح جانبا من المغزى العميق الذي يكمن في قوله تعالى: "والله يعصمك من الناس". (سورة المائدة الآية ٦٧.)

ولكننا قبل ذلك، لا بد لنا من إثارة بقض النقاط المفيدة في هذا المجال فنقول:

الحدث الخالد

أن من طبيعة الزمن في حركته نحو المستقبل، وابتعاده عن قضايا الماضي، وهو أن يؤثر في التقليل من أهمية الاحداث الكبيرة، التي يمر بها، وتمر به، ويساهم في افولها شيئا فشيئا، حتى تصبح على حد الشبح البعيد البعيد، ثم قد ينتهي بها الأمر إلى أن تختفي عن مسرح الذكر والذاكرة، حتى كأن شيئا لم يكن.

ولا تحتاج كبريات الحوادث في قطعها لشوط كبير في هذا الاتجاه إلى أكثر من بضعة عقود من الزمن، مشحونة بالتغيرات والمفاجآت.

وحتى لو احتفظت بعض معالمها- لسبب أو لآخر- بشئ من الوضوح، ونالت قسطا من الإهتمام، فلا يرجع لك إلى أن لها دورا يذكر في حياة الإنسان وفي حركته، وإنما لأنها أصبحت تاريخا مجيدا يبعث الزهو والخيلاء لدى بعض الناس، الذين يرون في ذلك شيئا يشبه القيمة، أو يعطيهم بعضا من الإعتبار والمجد بنظرهم.

ولكن قضية الغدير، رغم مرور الدهور والأحقاب، وبعد ألف وأربع مئة سنة زاخرة بالتقلبات العجيبة، وبالقضايا الغريبة، ومشحونة بالحروب والكوراث، بالعجيب من القضايا والحوادث.

ورغم المحاولات الجادة، والمتتابعة للتعتيم علنها ن وإرهاقها بالتعليلات غير المعقولة، باردة كانت أو ساخنة، بهف حرفها عن خطها القويم، وعن الإتجاه الصحيح والسليم..

وكذلك رغم ما عاناه ويعانيه المهتمون بها من اضطهاد وغربة، وتشريد ومحنة، وما يصب على رؤوسهم من بلايا ومصائب، وكوارث ونوائب.

نعم... رغم ذلك كله وسواه، فإن هذه الحادثة بما تمثله من قضية كبرى للإيمان وللأنسان، قد بقيت ولسوف تبقى القضية الأكثر حساسية وأهمية ن لأنها الأكثر صلة بالإيمان وبالانسان، ولانها الأعنف تأثيرا في حياة هذا الكائن، وفي بنية شخصيته من الداخل، وعلى علاقاته بكل من وما يحيط به، أو يمت إليه بأدنى صلة أو رابطة من الخارج.

وهي كذلك القضية الأكثر مساسا وارتباطا بمستقبل هذا الإنسان، وبمصيره،إن في الدنيا، وإن في الآخرة.

وهذا بالذات هو السر في احتفاظ هذه القضية بكل حيويتها، وحساسيتها بالنسبة إليه، على مر الدهور، وتعاقب العصور، ولسوف تبقى كذلك كما سيتضح فيما يأتي.

مفتاح الحل

وإذا كان الأمر كذلك فلا يبقى مجال لما ق/ يثيره البعض، من أنه:

سواء أكان الحق في ذلك لعلى "عليه السلام"، وقد اغتصب منه، وأقصي عن منصب هو له، أم لم يكن الأنر كذلك، فإن هذه القضية قد تجاوزتها الأحداث، وأصبحت تاريخا يحكيه البعض، وينساه آخرون، كأي حدث تاريخي آخر..

فلم يعد الوقوف عندها والإهتمام بها مجديا، ولا مفيدا، إن لم نقل: إن فيه ما يوجب الفرقة، ويرسخ التباعد، بما يثيره من كوامن وضغائن.

لا... ليس ثمة مجال لهذا القول، فإن قضية الغدير، لا تزال ولسوف تبقى هي القضية الأساسية والرئيسة بالنسبة للمسلمين جميعا، بل وحتى بالنسبة لغيرهم أيضا.

وهي المفتاح للباب الذي لا بد من الدخول منه لحل المشاكل المستعصية الكبرى، وبعث وبناء الإسلام وقوته وحيويته.

وبدون ذلك، فإن على الجميع أن يستعدوا للمزيد من المصائب، وأن يقبلوا- شاؤا أم أبوا- باستمرار حالة الضعف والتقهقر، بل وانهيار بناء الإسلام الشامخ.

خلافة أم إمامة

وذلك لأن القضية لا تقتصر على أن تكون مجرد قضية خلافة وحكم، أي قضية: أن يحكم هذا، أو يحكم ذاك، لسنوات معدودة، وينتهي الأمر- وربما يقال إن الذين تصدوا للحكم، واستأثروا به لأنفسهم قد قصدوا ذلك، ولكننا نجد شواهد كثيرة قد لا تساعد على هذا الفهم الساذج للأمور.

لا.. لا يقتصر الأمر على ذلك، وإنما هو يتجاوزه لما هو أهم وأخطر، حيث قد عمل الحكام الأمويون على تكريس مفهوم الإمامة والخلافة الإلهية في كل شخصية تصدت للحكم.. وذلك في نطاق تقديم العديد من الضوابط والمعايير، المستندة إلى مبررات ذات طابع عقائدي في ظاهره يتم على أساسها اضطهاد الفكر والإعتقاد المخالف، والتخلص من رجالاته بطريقة أو بأخرى.

وقد سرت تلك المفاهيم المخترعة في الناس، وأصبحت أمرا واقعا، لا مفر منه ولا نهرب، ولا ملجأ منه ولا منجى، وتفرقت الفرق، وتحزبت الأحزاب، رغم أن غير الشيعة من أرباب الفرق والمذاهب الإسلامية يعتقدون بالخلفاء أكثر مما يعتقدن الشيعة في أئمتهم ويمارسون ذلك عملا، ولكنهم ينكرون ذلك، ولا يعترفون به، كما أنهم ينكرون على الشيعة اعتقادهم في أئمتهم ما هو أخف من ذلك وأيسر.

دور الامامة في بناء الانسان والحياة

وليس من الغريب القول بأن قضية الإمامة والموقف منها هو الذي يحدد مسار الإنسان واتجاهه في هذه الحياة وعلى أساس هذا التحديد، والمعرفة والإعتراف يتحدد مصيره، ويرسم مستقبله، وبذلك تقوم حياته، فيكون سعيد أو شقيا، في خط الإسلام وهداه، أو في متاهات الجاهلية وظلماتها كما أشير إليه في الحديث الشريف: "من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية" أو ما بمعناه. (راجع: الغدير ج ١، ص ٣٩٠ عن التفتازاني في شرح المقاصد ج٢، ص ٢٧٥، وكنز الكراكجي: ص ١٥١، والمناقب لإبن شهر آشوب ج ٣ ص ٢١٧، ومجمع الزاوئد ج ٥، ص ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢١٩ و ٢١٨، ومسند أحمد ج ٤، ص ٩٦، والبحار ج ٢٣، ص ٩٢ و ٨٨ و ٨٩ وفي هوامشه عن الإختصاص: ٢٦٩، وعن إكمال الدين: ص ٢٣٠ و ٢٣١، وعن عيون أخبار الرضا عليه السلام: ص ٢١٩، ومنتخب الأثر: ص ١٥ عن الجمع بين الصحيحين و الحاكم).

فعلى أساس الأعتقاد بالإمامة يجسد الإنسان على صعيد الواقع، والعمل، مفهوم الأسوة والقدوة، الذي هو حالة طبيعية، يقوم عليها-من حيث يشعر أو لا يشعر- يناء وجوده وتكوين شخصيته، منذ طفولته.

وعلى أساس هذا الإعتقاد، وذلك الموقف- أيضا- يختار أهدافه، ويختار السبل التي يرى أنها توصلة إليها.

كما أن لذلك تأثيره الكبير في تكوينه النفسي، والروحي، والتربوي، وفي خصوله هلة خصائصه الإنسانية وفي حفاظه على ما لديه منها.

والإمامة هي التي تبين له الحق من الباطل، والحسن من القبيح، والضار من النافع.

وعلى أساس الالتزام بخطها يرتبط بهذا الإنسان أو بذاك، ويتعاون معه، ويتكامل، أو لا يفعل ذلك.

كما أنها هي التي تقدم للإنسان المعايير والنظم، والمنطلقات التي لا بد أن يلتزم بها، وينطلق منها، ويتعامل ويتخذ المواقف- إحجاما أو إقداما- على أساسها.

أضف إلى ذلك أنها تتدخل في حياته الخاصة، وفي ثقافته، وفي أسلوبه وفي كيفية تفكيره.

ومن الإمام يأخذ معالم الدين وتفسير القرآن، وخصائص العقائد ودقائق المعارف. وهذا بالذات هو السر في أننا نجد إنسانا يأخذ معالم دينه من شخص دون آخر، ويجعل هذا أسوته وقدوته دون ذاك.

إذن.. فموضوع الغدير، ونصب الإمام للناس، وتعريفهم به، لا يمكن أن يكون على حد تنصيب خليفة، أو حاكم، أو ما إلى ذلك، بل الأمر أكبر وأخطر من ذلك... كما أنه ليس حدثا عابرا فرضته بعض الظروف، لا يلبث أن ينتهي ويتلاشى تبعا لتلاشي وانتهاء الظروف التي فرضته أو أوجدته، وليصبح في جملة ما يحتضنه التاريخ من أحداث كبيرة، وصغيرة، لا يختلف عنها في شي ء، ولا أثر له في الحياة الحاضرة إلا بمقدار ما يبعثه من زهو، واعتزاز، أو يتركه من مرارة وألم على مستوى المشاعر والانفعالات لا أكثر.

بل أمر الإمامة، هو الذي يمس في الصميم حقيقة الإنسان، ومصيره ومستقبله، ودنياه وآخرته، ويؤثر في مختلف جهات وجوده وحياته.

ومعنى ذلك هو أنه لا بد من حسم الموقف في هذا الأمر ليكون الإنسان على بصيرة من أمره يموت ميتة جاهلية. كما تقدم عن الرسول الأعظم "صلى الله عليه وآله وسلم".

واشتراط الحديث الشريف تحصيل معرفة الإمام في النجاة من الهلكة وذلك في صيغة عامة تشمل كل إنسان حتى ولو لم يكن يعتنق الإسلام، حيث قال: "من مات ولم يعرف إمام زمانه....." ولم يقل: إذا مات المسلم ولم.....

إن هذا الإشتراط يوضح لنا: أن تجاهل قضية الإمامة، وعدم حسم الأمر في موضوع الأسوة والقدوة يساوي رفضها، وإبعادها عن محيط الحياة والإنسان في كونه يوجب الميتة الجاهلية، ويترك آثاره السلبية المهلكة والمبيدة، على مجمل حياة هذا الكائن وعلى مستقبله ومصيره، في الدنيا والآخرة.

ومما يدل على ذلك، ويثبته ويؤكده: أنه تعالى قد اعتبر عدم إبلاغ أمر الإمامة إلى الناس، يساوي عدم إبلاغ الرسالة نفسها من الأساس، وذلك يعني: أنه لا يمكن التسامح فيها ولا المحاباة، ولا مجال لإبعاده وتعطيلها لأن ذلك يعني إبعاد الدين وتعطيله، ومنعه من أن يكون هو سيد الموقف، وصاحب القرار في حياة الإنسان، وفي مجمل مواقفه.

فما بلغت رسالته

وبعد أن عرفنا: أن الفضية ليست قضية شخص، وإنما هي قضية الرسالة، أن تكون، أو لا تكون، حتى لقد قال تعالى، مخاطبا نبيه "صلى الله عليه وآله"، في مجال الحث على حسم أمر الإمامة "و إن لم تفعل فما بلغت رسالته" بعد أن عرف ذلك.. فإن المنع من إبلاغ الرسالة والإمامة معناه حرمان الإنسان من الهداية الإلهية، والرعاية الربانية، وليس هناك جريمة أعظم ولا أخطر من ذلك.

وهنا لا بد من إلقاء نظرة على ما كانت عليه الحال في زمن الرسول الأكرم "صلى الله عليه وآله وسلم"، فيما يرتبط بهذه القطة بالذات، لنتعرف على أولئك الناس الذين حاولوا منع الرسول الأكرم "صلى اله عليه وآله وسلم" من إبلاغ أمر الإمامة إلى الناس وذلك في الفصل التالي.

الموتورون و الحاقدون المعارضون

إننا إذا رجعنا إلى القرآن الكريم، فسوف نجد أنه قد أفصح لنا عن وجود فئات من الناس، كانت تقف في وجه الرسول "صلى الله عليه وآله وسلم" مباشرة، وتمنعه من بيان أمر الإمامة وإقامة الحجة فيها، حتى احتاج "صلى الله عليه وآله" إلى طلب العصمة من الله سبحانه، ليتمكن من مواجهة هؤلاء، وكبح جماحهم.

فمن هم هؤلاء الأشرار الأفاكون، والعتاة المجرمون.الذين يجترؤون على مقام النبوة الأقدس، ويقفون في وجه إبلاغ أوامر الله، وأحكامه.

الجواب :

إن كتب التاريخ والحديث، والسيرة زاخرة بالشواهد والدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، التي تكشف لنا القناع عن وجه هؤلاء، وتظهر مدى تصميمهم على رفض هذا الأمر، ومحاربة، وطمسه ومنابذته، بكل ما أوتوا من حول وقوة..

ونحن في مقام التعريف بهم، والدلالة عليهم نبادر إلى القول: إنهم- للأسف- قوم رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم"، وحاربته وهو غض طري العود،ثم حاربته بعد أن ضرب بجرانه، وعلمت على زعزعة أركانه، حينما أرادت حرمانه من العنصر الضروري والأهم للحياة وللاستمرار، والبقاء... وأعني به عنصر الإمامة والقيادة.

والنصوص التالية خير شاهد على سياسات قريش هذه. فلنقرأها بتمعن، وصبر، وأناة.

النصوص الصريحة

قال عثمان بن عفان لإبن عباس: "لقد علمت: أن الأمر لكم، ولكن قومكم دفعوكم عنه" ثم تذكر الرواية له كلاما آخر، وجواب إبن عباس له، فكان مما قال: "فأما صرف قومنا عنا الأمر، فعن حسد-قد والله- عرفته، وبغي، - والله - علمته بيننا وبين قومنا".

(قاموس الرجال ج ٦، ص ٣٧، وشرح النهج للمعتزلي ج ٩، ص ٩، والموفقيات: ص ٦٠٦.(وحين ظهرت نتائج الشورى التي عينها عمر بن الخطاب، قال رجل من بني مخزوم لعمار: "ما أنت وتأمير قريش لأنفسها"

ثم تستمر الرواية إلى أن تذكر: أن المقداد قال: "تالله، ما رأيت مثل ما أتي إلى أهل هذا البيت. واعجبا لقريش، لقد تركت رجلا، ما أقول، ولا أعلم أحدا أقضى بالعدل..."

(قاموس الرجال ج ٦، ص ٣٨٥، وشرح النهج للمعتزلي ج ١٢، ص ٢٦٦ و ج ٩ ص ٥٨-٥٧، وفي كلمات المقداد رحمه الله عبارات أخرى صريحة في ذلك، فلتراجع). وخطب أبو الهيثم بن التيهان بين يدي أمير المؤمنين على "عليه السلام"، فقال:

"إن حسد قريش إياك على وجهين، أما خيارهم فتمنوا أن يكونوا مثلك منافسة في الملأ، وارتفاع الدرجة. وأما شرارهم فحسدوك حسدا أنغل القلوب، وأحبط الأعمال، وذلك أنهم رأوا عليك نعمة قدمك إليها الحظ، وأخرهم عنها الحرمان، فلم يرضوا أن يلحقوك حتى طلبوا أن يسبقوك، فبعدت- والله- عليهم الغاية، وأسقط المضمار، فلما تقدمتهم بالسبق. وعجزوا عن اللحاق بك بلغوا منك ما رأيت، وكنت والله أحق فريش بشكر قريش....."

(الأوائل ج ١، ص ٣١٧-٣١٦

).

وعمرو بن عثمان بن عفان أيضا قال: "ما سمعت كاليوم إن بقي من عبد المطلب على وجه الأرض أحد بعد قتل الخليفة عثمان- إلى أن قال:- فيا ذلاه، أن يكون حسن وسائر بني عبد المطلب- قتلة عثمان- أحياء يمشون على مناكب الأرض....."

(الإحتجاج ج ١ ص ٤٠٣،والبحار ج ٤٤، ص ٧١.

)

يقولون هذا مع أنهم يعلمون: أن الحسن "عليه السلام" كان يدافع عن عثمان وهو محاصر في داره.

وعن على بن الحسين "عليه السلام"، أنه قال: ما بمكة والمدينة عشرون رجلا يحبنا.

(شرح النهج للمعتزلي ج ٤، ص ١٠٤، والبحار ج ٤٦، ص ١٤٣ وعن الطبعة الحجرية ج ٨، ص ٦٧٦ و٧٣٠، وراجع: الغارات ج ٢، ص ٥٧٣.

)

ودخل العباس على رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم"، فقال: يا رسول الله. إنا لنخرج فنرى قريشا تحدث، فإذا رأونا سكتوا. فغضب رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم"، ودر عرق بين عينيه.

(مسند أحمد ج ٤، ص ١٦٤ و ج ١، ص ٢٠٨، وراجع ص ٢١٠، وسنن إبن ماجة ج ١، ص ٥٠، وحياة الصحابة ج ٢، ص ٤٨٧ و ٤٨٨، ونل الأبرار: ص ٣٥-٣٤، وراجع: تاريخ المدينة ج ٢، ص ٢٣٩ و ٦٤٠، ومستدرك الحاكم ج ٣، ص ٣٣٣، وتلخيصه للذهبي، بهامش نفس الصفحة، ومنحة المعبود ج ٢، ص ١٤٧ ومجمع الزوائد ج ٩ ص ٢٦٩ والجامع الصحيح للترمذي ج ٥ ص ٦٥٢، وصححه، واسد الغابة ج ٣، ص ١١٠، وكنز العمال ج ١٣، ص ٩٠ و ٨٩-٨٨ و ٨٣، و ج ١٦، ص ٢٥٤ و ١٣٥ و ١٢٨ عن عدد من المصادر ونقله بعض الأعلام عن الكامل لإبن عدي ج ٦، ص ١٨٨٥، وعن المصنف لإبن أبي شيبة ج ١٢، ص ١٠٨، وعن المعرفة والتاريخ ج ١، ص ٤٩٧ و ٤٩٩. والبحار ج ٨، ص ١٥١ الطبعة الحجرية.)

وسئل الإمام السجاد "عليه السلام"- وابن عباس أيضا: ما أشد بغض قريش لأبيك؟!.

قال: لأنه أورد أولهم النار، وألزم آخرهم العار.

(نثر الدر لآبي ج ١، ص ٣٠٤ والمناقب لإبن شهرآشوب ج ٣، ص ٢٢٠ والبحار الطبعة الحجرية ج ٨، ص ١٥١.)

وعن إبن عباس: قال عثمان لعلي "عليه السلام": "ما ذنبي إذا لم يحبك قريش، وقد قتلت منهم سبعين رجلا، كأن وجوههم سيوف الذهب".

(معرفة الصحابة لأبي نعيم الورق ٢٢ مخطوط في مكتبة طوب قبوسراي رقم ١ ص ٤٩٧ /أ، والجمل ص ٩٩ وشرح النهج المعتزلي ج ٩، ص ٢٣.)

وقريب منه ما روي أن ابن عمر، قد قاله لعلي أمير المؤمنين "عليه السلام" أيضا.

(المناقب لإبن شهر آشوب ج ٣، ص ٢٢٠.)

وروي أن العباس قال لرسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم": إن قريشا، جلسوا، فتذكروا أحسابهم، فجعلوا مثلك مثل نخلة في كبوة من الأرض، فقال "صلى الله عليه وآله وسلم"..... الخ.

وحسب نص آخر: أن ناسا من الأنصار جاؤوا إلى النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" فقالوا: إنا لنسمع من قزمك، حتى يقول القائل منهم: إنما مثل محمد مثل نخلة.

(راجع مسند أحمد ج ٤، ص ١٦٦، ولسان العرب ج ١٥، ص ٢١٣، والبحار ج ٣٦ ص ٢٩٤، والنهاية ج ٤، ص ١٤٦.

وفي الكامل لإبن عدي ج ٢، ص ٦٦٥: أن القائل هو أبو سفيان وفي البحار ج ٣٦، ص ٢٧٨ و ٢٩٤: أن القائل هو عمر بن الخطاب.

والكبا: الكناسة، والتراب الذي يكنس.)

ويقولون أيضا: قد كان هوى قريش كافة ما عطا بني هاشم في عثمان.

(شرح النهج للمعتزلي ج ٩، ص ٥٢.) و قال المقداد: واعجبا لقريش، ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيهم.

(تاريخ اليعقوبي ج ٢، ص ١٦٣.)

وقال الثقفي: كانت قريش كلها على خلافه مع بني أمية.

(الغارات ج ٢، ص ٥٧٠، وراجع ٥٥٤.) وبعد بيعة عثمان بكلن عمار، فذكرئ/ أن قريشا هي التي صرفت هذا الأمر عن أهل البيت، ثم قال المقداد لعبد الرحمن بن عوف:

"يا عبد الرحمن، اعجب من قريش، إنما تطولهم على الناس بفضل أهل هذا البيت، قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" بعده من أيديهم. أما وأيم الله يا عبد الرحمن، لو أجد على قريش أنصارا لقاتلتهم كقتالي إياهم مع النبي عليه الصلاة والسلام يوم بدر".

(مروج الذهب ج ٢، ص ٣٤٣.) "وعد أن بايع الناس عليا "عليه السلام" قام أبو الهيثم، وعمار وأبو أيوب،وسهل بن حنيف، وجماعة معهم، فدخلوا على علي "عليه السلام"، فقالوا: يا أمير المؤمنين أنظر في أمرك، وعاتب قومك هذا الحي من قريش، فانهم قد نقضوا عهدك،واخلفوا وعدك، ودهونا في السر إلى رفضك"

(شرح النهج لإبن أبي الحديد، المعتزلي ج ٢، ص ٤٠

39) - كما أن البراء بن عازب عد ذكر: أنه حين توفي رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" تخوف أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عن بني هاشم.
(شرح النهج لإبن أبي الحديد المعتزلي ج ٢، ص ٥١.) وروي: أن النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" قد قال لعلي "عليه السلام"، إن الأمة ستغدر بك بعدي.

(نزل الأبرار: ص ٢٦١، وتاريخ بغداد ج ١١، ص ٢١٦، ومستدرك الحاكم ج ٣، ص ١٤٢، وتلخيصه للذهبي، بهامش نفس الصفحة، وعن كنز العمال ج ٦، ص ٧٣، والبحار- طبعة حجرية- ج ٨، ص ٦٢٩.) كما أنه "صلى الله عليه وآله وسلم" قد أخبر أمير المؤمنين، بأن في صدور أقوام ضغائن، لا يبدونها له إلا بعده، وفي بعض المصادر: أن ذلك كان منه "صلى الله عليه وآله وسلم" حين حضرته الوفاة.

(راجع المصادر التالية: تذكرة الخواص: ص ٤٦-٤٥، كفاية الطالب: ص ٢٧٢، وفرائد السمطين ج ١ ص ١٥٢، والبحار ج ٢٨، ص ٥٤-٥٣ وكتاب سليم بن قيس: ص ٢٢، ومجمع الزوائد ج ٩، ص ١١٨ عن البزار والطبراني وأبي يعلى، والمناقب للخوارزمي ص ٢٦ وتاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٩٨ ومقتل الحسين للخوارزمي: ج ١، ص ٣٦، وترجمة الإمام علي بن أبي طالب "عليه السلام"- من تاريخ دمشق، بتحقيق المحمودي ج ٢، ص ٣٢٥-٣٢٢، ونور الأبصار: ص ٧٩، وميزان الإعتدال ج ٣، ص ٣٥٥ وشرح النهج للمعتزلي ج ٤، ص ١٠٧، وكنز العمال ج ١٥، ص ١٥٦ عن إبن النجار وأبي الشيخ والمستدرك والبزار وإبن الجوزي والخطيب وأبي يعلى، وكفاية الأثر: ص ١٢٤ و ١٥٨.)

الخليفة الثاني يتحدث أيضا

قال عمر لإبن عباس وهو يتحدث عن سبب صرف الأمر عن علي "عليه السلام" :والله، ما فعلنا الذي فعلنا معه عن عداوة، ولكن استصغرناه، وخشينا أن لا يجتمع عليه العرب، وقريش، لما قد وترها".

(الغدير ج ١، ص ٣٨٩ عن محاضرات الراغب، والبحار ج ٨، ص ٢٠٩- الطبعة الحجرية.) وقال لإبن عباس أيضا: "كرهت قريش أن تجمع لكم النبوة والخلافة، فتجفخوا الناس جفخا،

(الجفخ: التكبر.) فنظرت قريش لأنفسها، فاختارت، ووفقت، فأصابت".

(قاموس الرجال ج ٦، ص ٣٣ و ٤٠٣، وقال: رواه الطبري في أحوال عمر، والمسترشد في إمامة علي "عليه السلام": ص ١٦٧ وشرح النهج للمعتزلي ج ١٢، ص ٥٣، و راجع ص ٩ و عبر ب "قومكم " وفيه: "إنهم ينظرون إليه نظر الثور إلى جازره"، وراجع ج ٢، ص ٥٨ والإيضاح: ص ١٩٩.) وفي موقف آخر له أيضا معه، قال الخليفة له: " استصغر العرب سنه". كما أنه قد صرح أيضا بأن قومه قد أبوه.

(راجع: شرح النهج للمعتزلي ج ١٢، ص ٤٦ وراجع ج ٢، ص ٥٨ و ٨١، وفي هامشه عن الرياض النضرة ج ٢، ص ١٧٣، وراجع: بهج الصباغة ج ٤، ص ٣٦١، وقاموس الرجال ج ٧، ص ٢٠١ و ج ٦، ص ٣٥ عن الموفقيات.)

وفي مناسبة أخرى قال له: "لا، ورب هذه البنية، لا تجتمع عليه قريش أبدا".

(شرح النهج ج ١٢، ص ٢٠ و ٢١ عن كتاب بغداد لأحمد بن أبي طاهر، وراجع ج ١٢، ص ٧٩ و ٨٥ و ٨٦ و ٨٤ و ٨٠ و ٨٢، وكشف الغنة ج ٢، ص ٤٩، وقاموس الرجال ج ٦، ص ٣٩٨ و ج ٧، ص ١٨٨، وبهج الصباغة ج ٦، ص ٢٤٤ و ج ٤ ص ٣٨١، ونقل عن البحار- طبع كمباني- ج ٨، ص ٢١٣ و ٢٦٦ و ٢٩٢، وعن ناسخ التواريخ "الجزء المتعلق بالخلفاء": ص ٨٠-٧٢.)

وقال أيضا لإبن عباس: "إن عليا لأحق الناس بها، ولكن قريشا لا تحتمله....".

(تاريخ اليعقوبي ج ٢، ص ١٥٨، وقاموس الرجال ج ٦، ص ٣٦ عنه.)

قريش في كلمات علي "عليه السلام"

وإذا رجعنا إلى كلمات أمير المؤمنين "عليه الصلاة والسلام" نفسه، فإننا نجده يحمل قريشا مسؤولية كل المصائب والرزايا والبلايا التي واجهها هو وكل المخلصين بعد وفاة النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" ولا سيما فيما يرتبط بأمر الخلافة، وما نشأ عن ذلك من تمزق في جسم الأمة، وتوزع في أهوائها. ثم ما كان من تقاتل وتناحر، وانحراف عن خط الإسلام وعن مفاهيمه وأحكامه؟

وإلى يوم يبعثون...

ونذكر من كلماته "عليه السلام" هنا، ما يلي:

قال "عليه السلام": "اللهم أخز قريشا، فإنها منعتني حقي، وغصبتني أمري".

(شرح النهج، للمعتزلي ج ٩، ص ٣٠٦.)

وعنه "عليه السلام": "فجزى قريشا عني الجوازي، فإنهم ظلموني حقي، واغتصبوني سلطان ابن أمي".

(المصدر السابق.)

وفي النهج البلاغة وغيره قال "عليه السلام": "اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قطعوا رحمي، وصغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمرا هو لي ثم قالوا: ألا في الحق أن تأخذه، وفي الحق أن تتركه".

وزاد في نص آخر: "فاصبر كمدا، أو فمت متأسفا حنقا، وأيم الله لو استطاعوا أن يدفعوا قرابتي- كما قطعوا سنتي- لفعلوا- ولكن لم يجدوا إلى ذلك سبيلا".

(راجع نهج البلاغة ج٢، ص ٢٢٧، والمسترشد في إمامة علي "عليه السلام": ص ٨٠ وشرح النهج المعتزلي ج ٤، ص ١٠٤ و ج ٦ ص ٦٩، راجع: البحار الطبعة الحجرية ج ٨، ص ٧٣٠ و ٦٧٢ والغارات ج ٢، ص ٥٧٠.)

وفي خطبة له "عليه السلام"، يذكر فيها فتنة بني أمية، ثم ما يفعله المهدي "عليه السلام" بهم، يقول: "فعند ذلك تود قريش بالدنيا وما فيها، لو يروننني مقاما واحدا، ولو قدر جزر جزور، لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه، فلا يعطونيه".

(نهج البلاغة ج ١ ص ١٨٤.) وعنه "عليه السلام": " حتى لقد قالت قريش: ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب ".

(الأغاني ج ١٥، ص ٤٥، ونهج البلاغة ج ١ ص ٦٦.)

وقال عليه السلام: "إني لأعلم ما في أنفسهم، إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر في صلاح شأنها، فتقول، إن ولي الأمر بنو هاشم لم يخرج منهم أبدا،وما كان في غيرهم فهو متداول في بطون قريش".

(راجع: قاموس الرجال ج ٦، ص ٣٨٤ و ٣٨٥، وشرج النهج للمعتزلي ج ١٢، ص ٢٦٦ ج ٩، ص ٥٧ و ٥٨.)

وقال "عليه السلام": "إن العرب كرهت أمر محمد "صلى الله عليه وآله" وحسدته على ما آتاه الله من فضله، واستطالت أيامه، حتى قذفت زوجته، ونفرت به ناقته،مع عظيم إحسانه إليها، وجسيم مننه عندها، وأجمعت مذ كان حيا على صرف الأمر عن أهل بيته بعد موته.

ولو لا أن قريشا جعلت اسمه ذريعة إلى الرياسة، وسلما إلى العز والإمرة، لما عبدت الله بعد موته يوما ولا واحدا، ولا ارتدت في حافرتها، وعاد قارحها جذعا وبازلها بكرا.

(البازل من الإبل: الذي قطر نابه.)

ثم فتح الله عليها الفتوح، فأثرت بعد الفاقة، وتمولت بعد الجهد والمخمصة، فحسن في عيونها من الإسلام ما كان سمجا، وثبت في قلوب كثير منها من الدين ما كان مضطربا، وقالت: لولا أنه حق لما كان كذا.

ثم نبست تلك الفتوح إلى آراء ولاتها، وحسن تدبير الأمراء القائمين بها، فتأكد عند الناس نباهة قوم، وخمول آخرين، فكنا نحن ممن خمل ذكره، وخبت ناره،وانقطع صوته وصيته، حتى أكل الدهر علينا وشرب.....".

(شرح النهج للمعتزلي ج ٢٠، ص ٢٩٨ و ٢٩٩.)

وفي نص آخر عنه "عليه السلام" أنه قال: "فلما رق أمرنا طمعت رعيان البهم من قريش فينا"

(الأمالي، للشيخ المفيد: ص ٣٢٤.)

وعنه "عليه السلام": "يا بني عبد المطلب، إن قومكن عادوكم بعد وفاة النبي، كعداوتهم النبي في حياته، وإن يطع قومكم لا تؤمروا أبدا".

وعنه صلوات الله وسلامه عليه: "ما رأيت منذ بعث الله محمدا رخاء، لقد أخافتني قريش صغيرا، وأنصبتني كبيرا، حتى قبض الله رسوله، فكانت الطامة الكبرى".

وقال له رجل يوم صفين: لم دفعكم عن قومكم هذا الأمر، وكنتم أعلم الناس بالكتاب والسنة؟!.

فقال "عليه السلام": "كانت إمرة شحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين".

كما أنه "عليه السلام" قد كتب لأخيه عقيل في رسالة جوابية له:

"فإن قريشا قد اجتمعت على حرب أخيك اجتماعها على حرب رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" قبل اليوم، وجهلوا حقي، وجحدوا فضلي، ونصبوا لي الحرب، وجدوا في إطفاء نور الله، اللهم فاجز قريشا عني بفعالها، فقد قطعت رحمي، وظاهرت علي.....". وفي بعض المصادر ذكر "العرب" بدل قريش.

(راجع الامامة والسياسة ج ١، ص ٥٦، وراجع المصادر التالية: الغارات ج ٢، ص ٤٣١، وشرح النهج للمعتزلي ج ٢، ص ١٩٩ وراجع ج ١٦،ص ١٥٢-١٤٨ وأنساب الأشراف ج ٢، ص ٧٥ بتحقيق المحمودي، والأغاني ج ١٥، ص ٤٦، ونهج البلاغة ج ٣، ص ٦٨، والدرجات الرفيعة: ص ١٥٦، وعن البحار- طبعة حجرية- ج ٨، ص ٦٢١ و ٦٧٣، وراجع أيضا نهج السعادة ج ٥، ص ٣٠٢، وراجع: جمهرة رسائل العرب ج ١، ص ٥٩٥. والعبارات في المصادر متفاوتة فيلاحظ ذلك.)

وأما بالنسبة لمعاوية الخليفة الأموي، فقد أخبر "عليه السلام": أنه لو استطاع لم يترك من بني هاشم نافخ ضرمة.

(تفسير العياشي ج ٢، ص ٨١، والبحار ج ٣٢، ص ٥٩٢، وعيون الأخبار- لإبن قتيبة- ج ١، ص ١٨١.)

وبعد... فإن الأمام الحسن "عليه السلام" قد ذكر في خطبة له أن قريشا هي المسؤولة عن موضوع إبعاد أهل البيت عن الخلافة، فراجع.

(راجع: شرح للمعتزلي ج ١٦ ص ٢٤ و ٣٣.)

بعض ما قاله المعتزلي هنا

هذا.. وقد أكد المعتزلي هذه الحقيقة في مواضع من شرحه لنهج البلاغة. ونحن نذكر هنا فقرات من كلامه، ونحيل من أراد المزيد على ذلك الكتاب، فنقول:

قال المعتزلي: "إن قريشا اجتمعت على حربه منذ بويع، بغضا له وحسداً، وحقداً، فأصفقوا كلهم يداً واحدة على شقاقه وحربه، كما كانت في ابتداء الإسلام مع رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم"، لم تخرم حاله من حاله أبداً".

(شرح النهج ج ١٦، ص ١٥١.)

وقال: "إنه رأى من بغض الناس له، وانحرافهم عنه، وميلهم عليه، وثوران الأحقاد التي كانت في أنفسهم، واحتدام النيران التي كانت في قلوبهم وتذكروا الترات التي وترهم فيما قبل بها، والدماء التي سفكها منهم، وأراقها- إلى أن قال: -ى وانحراف قوم آخرين عنه للحسد الذيكان عندهم له في حياة رسول الله "صلى الله

عليه وآله" لشدة اختصاصه له وتعظيمه إياه، وما قال فيه فأكثر من النصوص الدالة على رفعة شأنه، وعلى مكانه، وما اختص به من مصاهرته واخوته، ونحو ذلك من أحوله.

وتنكر قوم آخرين له، لنسبتهم إليه العجب والتيه- كما زعموا- وإحتقاره العرب،واستصغاره الناس، كما عددوه عليه، وإن كانوا عندنا كاذبين، ولكنه قول قيل، وأمر ذكر....".

(شرح النهج ج ١١، ص ١١٢ و ١١٣.)

وقال: "فقد رأيت انتقاض العرب عليه من أقطارها، حين بويع بالخلافة، بعد وفاة رسول الله "صلى الله عليه وآله" بخمس وعشرين سنة، وفي دون هذه المدة تنسى الأحقاد، وتموت الترات، وتبرد الأكباد الحامية،وتسلوا القلوب الواجدة، ويعدم قرن من الناس، ويوجد قرن، ولا يبقى من أرباب تلك الشحناء والبغضاء إلا الأقل".

فكانت حاله بعد هذه المدة الطويلة مع قريش كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه "صلى الله عليه وآله" من إظهار ما في النفوس، وهيجان ما في القلوب، حتى إن الأخلاف من قريش، والأحداث والفتيان، الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته في أسلافهم وآبائهم، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله، وتقاعست من بلوغ شأوه".

(شرح النهج ج ١١، ص ١١٤.)

وقال: "اجتهدت قريش كلها، من مبدأ الأمر في إخمال ذكره، وستر فضائله، وتغطيه خصائصه، حتى محي فضله ومرتبته من صدور الإسلام".

(شرح النهج ج ٨، ص ١٨.)

وقال: "إن قريشا كلها كانت تبغضه أشد البغض- إلى أن قال: ولست ألوم العرب، ولا سيما قريشا في بغضها له، وانحرافها عنه، فإنه وترها، وسفك دماءها، وكشف القناع في منابذته. ونفوس العرب وأكبادها كما تعلم!؟".

(شرح النهج ج ١٤، ص ٢٩٩.)

وهذا وقد أشار إلى بغض قريش ومنابذتها له في منابذتها له في مواضع عديدة أخرى من كتابه، فليراجعها من أراد.

(راجع شرح النهج ج ٩، ص ٢٨ و ٢٩ و ٥٢ و ج ٤، ص ١٠٤-٧٤.)

وبعد ما تقدم: فإن الوقت قد حان للوقوف على حقيقة موقف هؤلاء مما جرى في قضية "الغدير"، والظرف الذي كان يواجهه الرسول الأعظم "صلى الله عليه وآله وسلم" مع هؤلاء، في هذه المناسبة بالذات، فإلى الفصل التالي.

الرسول الأكرم يعرفهم

الرسول والمتآمرون

ونحن إذا رجعنا إلى كلمات الرسول الأعظم "صلى الله عليه وآله وسلم"، المنقولة لنا بصور متعددة، وفي موارد مختلفة، فإننا نجد، أنه "صلى الله عليه وآله وسلم" كان يؤكد على معرفته بنوايا المتآمرين من قومه قريش تجاه أهل بيته عموماً، وأمير المؤمنين علي "عليه السلام" بصورة خاصة، وقد تقدم عنه "صلى الله عليه وآله وسلم" بعض من ذلك، وما تركناه أكثر من أن يحاط به بسهولة، ويسر، لكثرته، وتنوعه.

ويكفي أن نذكر هنا: أن تأخيره إبلاغ ما أنزل غليه في شأن الإمامة والولاية، قد كان بسبب المعارضة الكبيرة التي يجدها لدى قريش، التي كانت لا تتورع عن إتهام شخص الرسول "صلى الله عليه وآله وسلم"، والطعن في نزاهته، وفي خلوص عمله ونيته.

وقد صلحت طائفة من النصوص المتقدمة بأن قريشاً كانت رائدة هذا الإتجاه، وهي التي تتصدى وتتحدى، وإليك نموذجا أخر من تصريحات الرسول "صلى الله عليه وآله وسلم" الدالة على معرفته بهؤلاء المتآمرين، ووقوفه على حقيقة نواياهم في خصوص هذا الأمر. وبالنسبة لقضية الغدير بالذات.

أمثلة وشواهد

١ ـ قال الطبرسي: "قد اشتهرت الروايات عن أبي جعفر، وأبي عبدالله "عليهما السلام": أن الله أوحى إلى نبيه "صلى الله عليه وآله وسلم": أن يستخلف علياً "عليه السلام"، فكان يخاف أن يشق ذلك جماعة من أصحابه، فأنزل الله هذه الآية تشجيعاً له على القيام بما أمره الله بأدائه.....".

(مجمع البيان ج ٣ ص ٢٢٣.)

والمراد ب "هذه الآية" قوله تعالى: "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك.....".

٢ ـ عنه "صلى الله عليه وآله وسلم": أنه لما أمر بإبلاغ أمر الإمامة قال: "إن قومي قريبة اعهد بالجاهلية، وفيهم تنافس وفخر، وما منهم رجل إلا وقد وتره وليّهم، وإني أخاف، فأنزل الله: "يا أيّها الرسول بلّغ.....".

(شواهد التنزيل ج ١، ص ١٩١).

٣ ـ عن ابن عباس إنّه "صلى الله عليه وآله وسلم" قال في غدير خم: "إن الله أرسلني إليكم برسالة وإني ضقت بها ذرعاً، مخافة أن تتهموني، وتكذبوني، حتى عاتبني ربي بوعيد أنزله علي بعد وعيد.....".

(شواهد التنزيل ج ١ ص ١٩٣.)

٤ ـ عن الحسن أيضاً: "إن الله بعثني برسالة، فضقت بها ذرعاً، وعرفت: أن الناس مكذبي، فوعدني لأبلغنّ أو ليعذبني، فأنزل الله: "يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك.....".

(الدر المثور ج ٢، ص ١٩٣ و ص ٢٩٨ عن أبي الشيخ.)

٥ ـ عن ابن عباس، وجابر الأنصاري، قالا: أمر الله تعالى محمداً "صلى الله عليه وآله وسلم": أن ينصب علياً للناس، فيخبرهم بولايته، فتخوف النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" أن يقولوا: حابى ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك فأوحى الله: "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك.....".

(راجع: مجمع البيان ج ٣، ص ٢٢٣، وتفسير العياشي ج ١، ص ٣٣١، وتفسير البرهان ج ١، ص ٤٨٩، وشواهد التنزيل ج ١، ص ١٩٢، والغدير ج ١، ص ٢١٩ و ٢٢٣ و ٣٧٧ عن المجمع، وعن روح المعاني ج ٢، ص ٣٤٨.)

٦ ـ عن جابر نن عبد الله: أن رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" نزل بخم، فتنحى الناس عنه، ونزل معه علي بن أبي طالب، فشقّ على النبي تأخر الناس، فأمر علياً فجمعهم،فلمّا اجتمعوا قام فيهم، متوسد "يد" علي بن أبي طالب،فحمد الله، واثنى عليه، ثم قال: "قال الناس، إنه قد كرهت تخلفكم عني حتى خيّل إلي: أنه ليس شجرة أبغض إليكم من شجرة تليني.....".

(راجع: مناقب علي بن أبي طالب: لإبن المغازلي: ص ٢٥ والعمدة: لإبن البطريق ص ١٠٧، والغدير ج ١، ص ٢٢ عنه وعن الثعلبي في تفسيره، كما في ضياء العالمين.)

٧ ـ ويقول نص آخر: إنه لما أمر "صلى الله عليه وآله وسلم" بنصب علي "عليه السلام": "خشي رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" من قومه، وأهل النفاق، والشقاق: أن يتفرقوا ويرجعوا جاهلية لما عرف من عداوتهم، ولما ينطوي عليه أنفسهم لعلي "عليه السلام" من العداوة والبغضاء، وسأل جبرئيل أن يسأل ربّه العصمة من الناس".

ثم تذكر الرواية: "أنه انتظر ذلك حتى بلغ مسجد الخيف. فجاءه جبرئيل، فأمره بذلك مرة أخرى، ولم يأته بالعصمة، ثم جاء مرة أخرى في كراع الغميم- موضع بين مكة والمدينة- وأمره بذلك، ولكنه لم يأته بالعصمة.

ثم لما بلغ غدير خم جاءه بالعصمة، فخطب "صلى الله عليه وآله وسلم" الناس، فأخبرهم: أن جبرئيل هبط إليه ثلاث مرات يأمره عن الله تعالى، بنصب علي "عليه السلام" إماماً ووليّاً للناس- إلى أن قال:- وسألت جبرئيل: ان يستعفي لي عن تبليغ ذلك إليكم- ايها الناس- لعلمي بقلة المتقين، وكثرة المنافقين، وإدغال الآثمين، وختل المستهزئين بالاسلام، الذين وصفهم الله في كتابه بأنهم: يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ويحسبونه هيناً، وهو عند الله عظيم. وكثرة أذاهم لي في غير مرّة، حتى سمّوني أذناً، وزعموا: أنّي كذلك لكثرة ملازمته إيّاي، وإقبالي عليه، حتى أنزل الله عز وجل في ذلك قرآناً: "ومنهم الذين يؤذون النبي، ويقولون هو أذن".....

إلى أن قال، ولو شئت أن أسميهم باسمائهم لسميت، وأن أومي إليهم بأعيانهم لأومأت، وأن أدل عليهم لفعلت. ولكني والله في أمورهم تكرّمت .....

(الاحتجاج ج ١، ص ٦٩ و ٧٠ و ٧٣ و ٧٤، وراجع: روضة الواعظين: ٩٠ و ٩٢ والبرهان ج ١، ص ٤٣٨-٤٣٧ والغدير ج ١، ص ٢١٦-٢١٥ عن كتاب "الولاية" للطبري.)

٨ ـ عن مجاهد، قال: "لما نزلت: "بلّغ ما أنزل إليك من ربك ". قال: يا رب، إنما أنا واحد كيف أصنع، يجتمع عليّ الناس؟ فنزلت "وإن لم تفعل فما بلغت رسالته".

(الدر المنثور ج ٢، ص ٢٩٨ عن إبن أبي حاتم، عبد بن حميد وإبن جرير.)

٩ ـ قال إبن رستم الطبري: "فلما قضى حجة وصار بغدير خم، وذلك يوم الثامن عشر من ذي الحجة، أمره الله عز وجل بإظهار أمر علي، فكأنه أمسك لما عرف من كراهة الناس لذلك، إشفاقاً على الدين، وخوفاً من ارتداد القوم، فأنزل الله "يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك...."

(المسترشد في إمامة علي "عليه السلام": ص ٩٥-٩٤.)

١٠ ـ وفي حديث مناشدة علي "عليه السلام" للناس بحديث الغدير، أيّام عثمان، شهد ابن أرقم، والبراء بن عازب، وأبو ذر، والمقداد، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال، وهو قائم على المنبر، وعلي "عليه السلام" إلى جنبه:

"أيها الناس، أن الله عز ودل أمرني أن أنصب لكم إمامكم، والقائم فيكم بعدي، ووصي، وخليفتي، والذي فرض الله عز وجل على المؤمنين في كتابه طاعته، فقرب

(لعل الصحيح: فقرن.) بطاعته طاعتي، وأمركم بولايته، وإني راجعت ربّي خشية طعن أهل النفاق، وتكذيبهم، فأوعدني لأبلغها، أو ليعذبني...".

(فرائد السمطين ج ١، ص ٣١٥ و ٣١٦، والغدير ج ١ ص ١٦٦-١٦٥ عنه، وإكمال الدين ج ١، ص ٢٧٧ وراجع البرهان ج ١، ص ٤٤٥ و ٤٤٤ وسليم بن قيس: ١٤٩، وثمة بعض الإختلاف في التعبير.)

وعند سليم بن قيس: "إن الله عز وجل أرسلني برسالة ضاق بها صدري، وظننت الناس يكذبوني، وأوعدني.....".

(سليم بن قيس: ص ١٤٨، والبرهان ج ١، ص ٤٤٤ و ٤٤٥، والغدير ج ١، ص ١٩٦ عن سليم بن قيس.)

١١ ـ وعن ابن عباس: لما أمر النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" أن يقوم بعلى ابن أبي طالب المقام الذي قام به، فانطلق النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" إلى مكة، فقال: رأيت الناس حديثي عهد بكفر- بجاهلية- ومتى أفعل هذا به، يقولوا: صنع هذا بابن عمّه ثم مضى حتى قضى حجة الوداع.

(الغدير ج ١، ص ٥٢-٥١ و ٢١٧ و ٣٧٨، عن كنز العمال ج ٦، ص ١٥٣ عن المحاملي في أماليه،وعن شمس الأخبار ص ٣٨، عن أمالي المرشد بالله، وراجع كشف الغمة ج ١، ص ٣١٨ وغير ذلك.)

وعن زيد بن علي، قال: لما جاء جبرئيل بأمر الولاية ضاق النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" بذلك ذرعاً، وقال: قومي حديثو عهد بجاهليّة، فنزلت الآية.

(الغدير ج ١، ص ٢١٧ عن كشف الغمة ج ١، ص ٣١٧.)

١٢ ـ وروي: انه "صلى الله عليه وآله وسلم" لما انتهى إلى غدير خم "نزل عليه جبرئيل، وأمره أن يقيم علياً، وينصبه إماماً للناس.فقال: إن أمتي حديثو عهد بالجاهلية. فنزل عليه: إنها عزيمة لا رخصة فيها، ونزلت الآية: "وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس.....".

(اعلام الورى: ص ١٣٢.)

١٣ ـ وفي رواية عن الإمام الباقر "عليه السلام" جاء فيها أنه حين نزلت آية إكمال الدين بولاية علي "عليه السلام": "قال عند ذلك رسول الله: إن أمتي حديثو عهد بالجاهلية، ومتى أخبرهم بهذا في ابن عمي، يقول قائل، ويقول قائل. فقلت في نفسي من غير أن ينطلق لساني، فأتتني عزيمة من الله بتلة أوعدني: إن لم ابلغ أن يعذبني فنزلت "يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك".

(البرهان في تفسير القرآن ج ١، ص ٤٨٨، والكافي ج ١، ص ٢٣٠.)

وفي بعض الروايات: إنه "صلى الله عليه وآله وسلم" إنما أخر نصبه "عليه السلام" فرقاً من الناس، أو لمكان الناس.

(تفسير العياشي ج ١، ص ٣٣٢ والبرهان "تفسير" ج ١، ص ٤٨٩.)

ممن الخوف يا ترى

١٤- عن: "ضاق بها ذرعاً، وكان يهاب قريشاً، فازال الله بهذه الآية تلك الهيبة".

(مجمع البيان ج ٣، ص ٢٢٣.)

يريد: أن الرسول "صلى الله عليه وآله وسلم" ضاق ذرعاً وخاف قريشاً بالنسبة لبلاغ أمر الإمامة، فأزال الله بآية: "والله يعصمك من الناس" خوفه بذلك.

المتآمرون

هذا غيض من فيض مما يدل على دور المتآمرين من قريش، ومن يدور في فلكها في صرف الأمر عن أمير المؤمنين علي "عليه السلام"، وتصميمهم على ذلك، لأسباب أشير إلى بعضها في ما نقلناه من كلمات ونصوص.

وفي مقدمة هذه الأسباب حرص قريش على الوصول إلى السلطة، وحقدها على أميرالمؤمنين "عليه السلام" لما قد وترها في سبيل الله والدين.

وكل ما تقدم يفسر لنا السر فيما صدر من هؤلاء الحاقدين من صخب وضجيج، حينما أراد الرسول "صلى الله عليه وآله وسلم" في منى وعرفات: أن يبلغ الناس أمر الإمامة، ودورها، وأهميتها، وعدد الأئمة، وأنهم إثنا عشر إماماً، وغير ذلك.

حيث قد تخوفوا من أن يكون قد أراد تنصيب علي"عليه السلام" إماماً للناس بعده.

فكان التصدي منهم. الذي انتهى بالتهديد الإلهي.

فاضطر المتآمرون إلى السكوت في الظاهر على مضض، ولكنهم ظلوا في الباطن يمكرون، ويتآمرون، "ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين".

(سورة الانفال الآية ٣٠.)

فإلى توضيح ذلك فيما يلي من صفحات، وما تحويه من مطالب.

الصخب والغضب

لقد ذكرت الروايات الصحيحة: أن رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم"، قد خطب الناس في حجة الوداع، في عرفة، فلما أراد أن يتحدث في أمر الإمامة وذكر حديث الثقلين،

(راجع: حديث الثقلين، للوشنوي: ص ١٣ وما ذكره من مصادر.) ثم ذكر عدد الأئمة، وأنهم إثنا عشر، واجتهه فئات من الناس بالضجيج والفوضى، إلى حد أنه لم يتمكن من إيصال كلامه إلى الناس.

وقد صرح بعدم التمكن من سماع كلامه كل من: أنس، وعبدالملك بن عمير، وعمر بن الخطاب، وأبي جحيفة، وجابر بن سمرة

(راجع: كفاية الأثر، للخزاز، وراجع أيضا: إحقاق الحق "الملحقات" ج ١٣ وغير ذلك.) - ولكن رواية هذا الأخير، كانت أكثر وضوحاً.

ويبدو أنه قد روى ذلك مرات عديدة، فرويت عنه بأكثر من طريق. فنحن نختار بعض نصوصها- ولاسيما ما ورد منها في الصحاح والكتب المعتبرة، فنقول:

١ ـ في مسند أحمد، حدّثنا عبدالله حدثني أبو الربيع الزهراني، سليمان بن داود، وعبدالله بن عمر القواريري، ومحمد بن أبي بكر المقدمي، قالوا: حدثنا حماد بن زيد، حدثنا مجالد بن سعيد، عن الشعبي، عن جابر بن سمرة، قال:

خطبنا رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" بعرفات- وقال المقدمي في حديثه: سمعت رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" يخطب بمنى.

وهذا لفظ حديث أبي الربيع:

فسمعته يقول: لن يزال هذا الأمر عزيزاً ظاهراً، حتى يملك إثنا عشر كلهم- ثم لغط القوم، وتكلموا، -فلم أفهم قوله بعد "كلّهم"، فقلت لأبي: يا أبتاه، ما بعد كلّهم؟.

قال: كلّهم من قريش.....

وحسب نص النعماني: "فتكلم الناس فلم افهم فقلت لأبي.....".

(مسند أحمد ج ٥، ص ٩٩، والغيبة- للنعماني ص ١٢٢ و ١٢٤.)

٢ ـ عن الشعبي، عن جابر بن سمرة، قال: قال رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم": "لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً، ينصرون على من ناواهم عليه إلى إثني عشر خليفة. قال: فجعل الناس يقومون ويقعدون "زاد الطوسي": وتكلم بكلمة لم أفهمها، فقلت لأبي، أو لأخي".....

(مسند أحمد ج ٥، ص ٩٩، والغيبة- للطوسي ص ٨٨ و ٨٩، واعلام الورى: ٣٨٤، والبحار ج ٦٣، ص ٢٣٦،منتخب الأثر٢٠

).

وفي حديث آخر عن جابر بن سمرة صرّح فيه: أن ذلك قد كان في حجة الوداع.

(مسند أحمد ج ٥، ص ٩٩.)

٣ ـ عن جابر بن سمرة، قال:

"خطبنا رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" بعرفات، فقال: لا يزال هذا الأمر عزيزاً منيعاً ظاهراً على من ناواه حتى يملك إثنا عشر، كلهم- قال: فلم أفهم ما بعد- قال: فقلت لأبي: ما قال بعد كلّهم؟ قال: كلّهم من قريش".

(مسند أحمد ج ٥، ص ٩٣ وفي ص ٩٦ في موضعين.)

وعن أبي داود وغيره:- وإن لم يصرّح بأن ذلك كان في عرفات- زاد قوله: كلّهم تجتمع عليه الأمة، فسمعت كلاما من النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" لم أفهمه، فقلت لأبي....

(سنن أبي داود ج ٤، ص ١٠٦، ومسند أبي عوانة ج ٤، ص ٤٠٠، وتاريخ الخلفاء: ص ١٠ و ١١، وراجع: فتح لباري ج ١٣، ص ١٨١ وكرر عبارة "كلهم تجتمع عليه الأمة" في ص ١٨٢ و ١٨٣ و ١٨٤، وذكرها أيضاً في الصواعق المحرقة: ص ١٨ وفي إرشاد الساري ج ١٠، ص ٢٧٣، وينابيع المودة ص ٤٤٤ وراجع: الغيبة للطوسي ص ٨٨، و الغيبة- للنعماني ص ١٢١ و ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٤.)

وفي لفظ آخر: كلهم يعمل بالهدى ودين الحق.

(الخصال ج ٢، ص ٤٧٤، والبحار٣٦، ص ٢٤٠ عنه وعن عيون أخبار الرضا "عليه السلام".)

وفي بعض الروايات: ثم أخفى صوته، فقلت لأبي: ما الذي أخفى صوته؟

قال: قال: كلهم من بني هاشم.

(ينابيع المودة ص ٤٤٥ عن كتاب: مودة القربى، للسيد على الهمداني، المودة العاشرة.)

٤ ـ وحسب نص آخر، ذكر أن ذلك كان في حجة الوداع، وقال: ثم خفي عليّ قول رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلّم"، وكان أبي أقرب إلى راحلة رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" مني، فقلت: يا أبتاه، ما الذي خفي عليّ من قول رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم"؟!

قال: يقول "كلهم من قريش".

قال: فأشهد على أبي إفهام أبي إيّاي: قال: كلهم من قريش".

(مسند أحمد ج ٥، ص ٩٠.)

٥ ـ وبعد أن ذكرت رواية أخرى عنه حديث أن الأئمة إثنا عشر قال: ثم تكلم بكلمة لم أفهمها، وضج الناس، فقلت لأبي: ما قال؟.

(مسند أحمد ج ٥، ص ٩٣.)

٦ ـ ولفظ مسلم عن جابر بن سمرة، قال: انطلقت إلى رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم"، معي أبي، فسمعته يقول: لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعا ألى إثني عشر خليفة، فقال كلمة صمنيها الناس.

فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلهم من قريش.

وعند أحمد وغيره: فقلت لأبي- أو لأنبي-: ما الكلمة التي أصمنيها الناس. قال: كلهم من قريش.

(صحيح مسلم ج ٦، ص ٤، وإحقاق الحق "الملحقات" ج ١٣، ص ١ عنه مسند أحمد ج ٥ ص ١٠١-٩٨، والبحار ج ٣٦، ص ٢٣٥ والخصال ج ٢ ن ص ٤٧٠ و ٤٧٢، والعمدة- لإبن البطريع: ص ٤٢١، وراجع: النهاية في اللغة ج ٣، ص ٥٤، ولسان العرب ج ١٢، ص ٣٤٣ ونقل عن كتاب: القرب في محبة العرب ص ١٢٩.)

٧ ـ وعن جابربن سمرة قال: كنت عند النبي "صلى الله عليه وآله وسلم"، فقال: يلي هذا الأمر إثنا عشر، فصرخ الناس، فلم اسمع ما قال، فقلت لأبي- وكان أقرب إلى رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" مني- فقلت: ما قال رسول الله؟

فقال:

قال: كلّهم من قريش، وكلهم لا يرى مثله.

(أبواب الإثني عشر، وإكمال الدين ج ١، ص ٢٧٣-٢٧٢، والبحار ج ٣٦، ص ٢٣٩.)

٨ ـ ولفظ أبي دواد: فكبر الناس وضجوا، ثم قال كلمة خفية.....

(سنن أبي داود ج ٤، ص ١٠٦، وفتح الباري ج ١٣، ص ١٨١، وإرشاد الساري ج ١٠، ص ٢٣٧.)

ولفظ أبي عوانة: فضج الناس.

وقد قال النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" كلنة خفيت عليّ.....

(مسند أبي عوانة ج ٤، ص ٣٩٤.)

وعلى كل حال.. فإن حديث الإثني عشر خليفة بعده "صلى الله عليه وآله وسلم"، والذي قال فيه "صلى الله عليه وآله وسلم" كلمة لم يسمعها جابر، وغيره- ممن كان حاضرا وروى الحديث: أولم يفهمها، أو خفض بها صوته، أو خفيت عليه، أو نحو ذلك- هذا الحديث- مذكور في كثير من المصادر والمراجع، فليراجعها طالبها.

(راجع المصادر التالية: صحيح مسلم ج ٦، ص ٣ بعدة طرق، ومسند أحمد ج ٥، ص ٩٣ و ٩٢ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٧ و ٩٦ و ٩٨ و ٩٩ و١٠٠ و ١٠١ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١٠٨، ومسند ابي عوانة ج ٤، ص ٣٩٤، وحلية الأولياء ج ٤، ص ٣٣٣، واعلام الورى: ٣٨٢، والعمدة لإبن البطريق ص ٤٢٢-٤١٦، وإكمال الدين ج ١ ص ٢٧٣-٢٧٢، والخصال ج ٢، ص ٤٦٩ و ٤٧٥ وفتح الباري ج ١٣، ص ١٨٥-١٨١ والغيبة للنعماني ص ١٢٥-١١٩ وصحيح البخاري ج ٤، ص ١٥٩ وينابيع المودة ص ٤٤٦-٤٤٤ وتاريخ بغداد ج ٢، ص ١٢٦ و ج ١٤، ص ٣٥٣ ومستدرك الحاكم ج ٣، ص ٦١٨ وتلخيصه للذهبي "مطبوع بهامش المستدرك" نفس الصفحة، ومنتخب الأثر ص ٢٣-١٠ عن مصادر كثيرة، والجامع الصحيح ج ٤، ص ٥٠١ وسنن أبي داود ج ٤، ص ١١٦ وكفاية الأثر ص ٤٩ إلى أخر الكتاب، والبحار ج ٣٦، ص ٢٣١ إلى أخر الفصل، وإحقاق الحق "الملحقات" ج ١٣، ص ٥٠-١ عن مصادر كثيرة.)

الفات النظر الى أمرين وقبل أن نواصل الحديث، فيما نريد التأكيد عليه، فإننا نلفت النظر إلى أمرين.

الأول: المكان فقد اختلفت الروايات حول المكان الذي أورد فيه النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" هذه الخطبة. فذكرت طائفة من الروايات: أن ذلك قد كان في حجة الوداع، في عرفات...

ورواية واحدة تردد فيها الرواي بين عرفات ومنى.

وهناك طائفة من الروايات عبّرت ب "المسجد".

(راجع بالنسبة لخصوص هذه الطائفة من الروايات الخصال ج ٢، ص ٤٦٩ و ٤٧٢، كفاية الأثر: ص ٥٠، ومسند أبي عوانة ج ٤، ص ٣٩٨، وإكمال الدين ج ١، ص ٢٧٢، وحلية الأولياء ج ٤، ص ٣٣٣ والبحار ج ٣٦، ص ٢٣٤، ومنتخب الأثر: ص ١٩.)

وسكتت روايات أخرى عن التحديد. مع أنها جميعاً قد تحدثت عن حدوث فوضى وضجيج، لم يستطع معه الراوي أن يسمع بقية كلام الرسول الأكرم "صلى الله عليه وآله وسلم"، وتوجد روايات أشارت إلى عدم فهم الرواي، ولم تشر إلى الضجيج.

فهل كرر النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" ذلك في المواضع المختلفة فكان يواجه بالضجيج والفوضى؟!

ويكون المقصود بالمسجد، هو المسجد الموجود في منى، أو عرفة؟!

إن لم يكن ذكر منى إشتباهاً من الراوي. أم أنه موقف واحد، اشتبه أمره على الرواة والمؤرخين؟!

أم أن ثمة يداً تحاول التلاعب والتشويش بهدف طمس الحقيقة، وإثارة الشبهات حول موضوع هام وحساس جداً. ألا وهو موضوع الإمامة بعد رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم".

قد يمكن ترجيح احتمال تعدد المواقف، التي أظهرت إصرار فئات الناس على موقف التحدي، والخلاف. وذلك بسبب تعدد الناقلين، وتعدد الخصوصيات والحالات المنقولة..

الثاني: كلهم من قريش ما ذكرته الروايات من أنه "صلى الله عليه وآله وسلم" قد قال:

"كلهم من قريش" موضع شك وريب.

وذلك لأن ما تقدم من حقيقة الموقف الظالم لقريش، ومن هم على رايها، وخططهم التي تستهدف تقويض حاكمية خط الإمامة، يجعلنا نجزم بأن العبارة التي لم يسمعها جابر بن سمرة، وأنس، وعمر بن الخطاب، وعبد الملك بن عمير، وأبو جحيفة، بسبب ما أثاره المغرضون من ضجيج هي كلمة: "كلهم من بني هاشم" كما ورد في بعض النصوص.

(ينابيع المودة: ص ٤٤٥ عن مودة القربى وراجع: منتخب الأثر: ص ١٤ وهامش ص ١٥ عنه.)

وهي الرواية التي استقر بها القندوزي الحنفي، على أساس: أنهم "لا يحسّنون خلافة بني هاشم".

(ينابيع المودة: ص ٤٤٦.)

إلا ان يكون "صلى الله عليه وآله وسلم" قد قال الكلمتين معاً، أي أنه "صلى الله عليه وآله وسلم" قال: "كلهم من قريش ن كلهم من بني هاشم". ويكون ذكره الفقرة الأولى توطئة، وتمهيداً لذكر الثانية، فثارت ثائرة قريش وأنصارها، وعجبوا وضجوا، وقاموا وقعدوا....!!

وإلا.. فإن قريشاً، ومن يدور في فلكها لم يكن يغضبهم قوله "صلى الله عليه وآله وسلم": "كلهم من قريش" بل ذلك يسرهم، ويفرحهم، لأنه هو الأمر الذي ما فتئوا يسعون إليه، بكل ما أوتوا من قوة وحول، ويخططون

ويتآمرون، ويعادون ويحالفون من أجله، وعلى اساسه، فلماذا الهياج والضجيج، ولماذا الصخب والعجيج، لو كان الأمر هو ذلك؟!.

الموقف.. الفضحية

ولا نشك في أن طائفة الأخيار، والمتقين الأبرار من صحابة النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" كانت تلتزم بأوامره "صلى الله عليه وآله وسلم" في كل ما يحكم ويقضي به.

أما من سواهم- وهم الأكثرية بالنسبة لأولئك- من أصحاب الأهواء، وطلاب اللبانات، وذوي الطموحات، ممن لم يسلموا، ولكنهم غلبوا على أمرهم، فاستسلموا، وأصبح كثير منهم يتظاهر بالورع، والدين والتقوى، والطاعة والتسليم لله، ولرسوله، متخذاً ذلك ذريعة للوصول إلى مآربه، وتحقيق أهدافه.

أما هؤلاء، الذين كانوا يظهرون خلاف ما يبطنون، ويسرون غير ما يعلنون، فقد كان لا بد من كشف زيفهم وإظهار خداعهم بصورة أو بأخرى.

وقد راينا: كيف أن هؤلاء الذين كانوا يتبركون بفضل وضوء رسول الله "صلى الله عليه وأله وسلم"، وحتى ببصاقه، ونخامته، وو... ويدّعون الحرص على امتثال أوامر الله سبحانه بتوقيره، وبعدم رفع أصواتهم فوق صوته

راجع سورة الحجرات: الآية ١ و ٢ وقد ورد أنّ هذه الآيات نزلت حينما حصل إختلاف فيما بين أبي بكر) . وبين عمر حول تأمير بعض الأشخاص من قبل النبي، فأصر أحدهما على شخص وأصر الآخر على آخر، حتى ارتفعت أصواتهما.

راجع الدر المنثور ج ٦، ص ٨٤-٨٣ عن البخاري وإبن المنذر وإبن مردويه، وأسباب النزول ص ٢١٨، وصحيح البخاري ج ٣، ص ١٢٢، والجامع الصحيح ج ٥، ص ٣٨٧، وتفسير القرآن العظيم ج ٤، ص ٢٠٦-٢٠٥، ولباب التأويل ج ٤، ص ١٦٤، وفتح القدير ج ٥، ص ٦١، والجامع لأحكام القرآن ج ١٦، ص ٣٠١-٣٠٠ وغرائب القرآن "مطبوع بهامش جامع البيان" ج ٢٦، ص ٧٢.) وبالتأدّب معه، وبأن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله وو... لقد رأينا أن هؤلاء بمجرد إحساسهم بأنه "صلى الله عليه وآله وسلم" يريد الحديث عن الأئمة الإثني عشر، وبيان مواصفاتهم، وتحديدهم بصورة أدق، وأوفى وأتم.

الأمر الذي جعلهم يخشون معه: أن يعلن إمامة من لا يرضون إمامته، وخلافه من يرون أنه قد وترهم، وآباد خضراءهم في موافقة المشهورة دفاعاً عن الحق والدين- ألا وهو علي أمير المؤمنين "عليه السلام"..

نعم، إنهم بمجرد إحساسهم بذلك علا ضجيجهم، وزاد صخبهم، وعلى حد تعبير الروايات: "ثم لغط القوم وتكلموا" أو: "وضج الناس".

أو: "فقال كلمة أصمينها الناس".

أو: "فصرخ الناس، فلم أسمع ما قال".

أو: "فكبر الناس، وضجوا".

أو: "فجعل الناس يقومون، ويقعدون".

نعم.. هذا كان موقفهم من الرسول، وهؤلاء هم الذين يدعى البعض لهم مقام العصمة عن كل ذنب، ويمنحم وسام الإجتهاد في الشريعة والدين "!!".

المصارحة المرة وقد تقدمت كلمات أمير المؤمنين "عليه الصلاة والسلام" التي صرح فيها بأن العرب كرهت أمر محمد "صلى الله عليه وآله وسلم"، وحسدته على ما آتاه الله من فضله، واستطالت أيامه، حتى قدفت زوجته، ونفرت به ناقته.

ولولا أن قريشاً جعلت اسمه ذريعة للرياسة، وسلما إلى العز والإمرة، لما عبدت الله بعد موته يوماً واحداً.

وعلى هذا، فإن من الطبيعي جداً: بعد أن جرى ما جرى منهم معه "صلى الله عليه وآله وسلم" في منى وعرفات وبعد أن تأكد لديهم إصرار النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" معاملة غريبة، وبصورة بعيدة حتى عن روح المجاملة الظاهرية.

وقد واجههم رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" بهذه الحقيقة، وصارحهم بها، في تلك اللحظات بالذات.

ويتضح ذلك من النص المتقدم في الفصل السابق والذي يقول:

عن جابر بن عبدالله:

أن رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" نزل بخم فتنحى الناس عنه، ونزل معه علي بن أبي طالب، فشق على النبي تأخر الناس، فأمر علياً، فجمعهم، فلما اجتمعوا قام فيهم متوسد "يد" علي بن أبي طالب، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: "أيها الناس، إنه قد كرهت تخلفكم عني، حتى خيل إلي: أنه ليس شجرة أبغض إليكم من شجرة تليني".

(راجع: مناقب علي بن أبي طالب لابن المغازلي ص ٢٥ والعمدة لإبن بطريق ص ١٠٧ والغدير ج ١ ص ٢٢ عنه وعن الثعلبي في تفسيره، كما في ضياء العالمين.)

وروى ابن حبان بسند صحيح على شرط البخاري، -كما رواه آخرون باسانيد بعضها صحيح أيضاً: إنه حين رجوع رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" من مكة،- حتى إذا بلغ الكديد "أو قدير" جعل ناس من أصحابه يستأذنون، فجعل "صلى الله عليه وآله وسلم" يأذن لهم.

فقال رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم":

"ما بال شق الشجرة التي تلي رسول الله أبغض إليكم من الشق الآخر؟".

قال: فلم نر من القوم إلا باكياً، قال: يقول أبو بكر: إن الذي يستأذنك بعد هذا لسفيه في نفسي الخ...".

(الإحسان في تقريب صحيح أبن حبان ج ١، ص ٤٤٤ ومسند أحمد ج ٤، ص ١٦ ومسند الطيالسي ص ١٨٢ ومجمع الزوائد ج ١٠، ص ٤٠٨ وقال: رواه الطبراني، والبزاز بأسانيد رجال بعضها عند الطبراني والبزاز رجال الصحيح، وكشف الأستار عن مسند البزار ج ٤، ص ٢٠٦ وقال في هامش "الإحسان": إنه في الطبراني برقم: ٤٥٥٦ و ٤٥٥٧ و ٤٥٥٨ و ٤٥٥٩ و ٤٥٦٠).

الغدير في ظل التهديدات الإلهية

قريش وخلافة بني هاشم

قد عرفنا في الفصل السابق: أن قريشاً، ومن هم على رأيها هم الذين كانوا يخططون لصرف الأمر عن بني هاشم، وبالذات عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام، ويتصدون لملاحقته ومتابعته في جميع تفاصيله وجزئياته.

وقد رأوا: أن رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" كان في مختلف المواقع والمواضع لا يزال يهتف باسمه، ويؤكد على إمامته، ولم يكن في مصلحتهم أن يعلن بذلك أمام تلك الجموع الغفيرة، التي جاءت للحج من جميع الأقطار والأمصار، ولأجل ذلك فقد بادروا إلى التشويش والإخلال بالنظام. قريش بالذات هي التي قصدت النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" في منزلة بعد هذا الموقف مباشرة لتستوضح منه ماذا يكون بعد هؤلاء الأئمة. فكان الجواب: ثم يكون الهرج. والصحيح: "الفرج"، كما رواه الخزاز.

(راجع كفاية الأثر: ص ٥٢، ويقارن ذلك مع ما في إحقاق الحق "الملحقات" وغيبة النعماني وغيرهما.. فإنهم صرحوا بان قريشاً هي التي أتته.)

وقد رأى النبي "صلى الله عليه وآله وسلم": أن مجرد التلميح لهذا الأمر، قد دفعهم إلى هذا المستوى من الإسفاف والإسراف في التحدي لإرادة الله سبحانه. ولشخص النبي "صلى الله عليه وآله وسلم"، دون أن يمنعهم من ذلك شرف المكان، ولاخصوصية الزمان، ولا قداسة المتكلم، وشأنه وكرامته.

فكيف لو أنه "صلى الله عليه وآله وسلم" صرح بذلك وجهر باسمه عليه الصلاة والسلام، فقد يصدر منهم ما هو أمر وأدهى وأقبح واشد خطراً على الإسلام وعلى مستقبله بصورة عامة.

التدخل الإلهي ثم جاء التهديد الإلهي لهم، فحسم الموقف، وأبرم الأمر، وظهر لهم أنهم عاجزون عن الوقوف في وجه إرادة الله، القاضية بلزوم إقامة الحجة على الناس كافة، بالأسلوب الذي يريده الله ويرتضيه، وأدركوا: أن استمرارهم في المواجهة السافرة قد يؤدي بهم إلى حرب حقيقة، فيما بينهم وبين الله ورسوله، وبصورة علنية ومكشوفة.

فلم يكن لهم بد من الرضوخ، والانصياع، لا سيما بعد أن افهمهم الله سبحانه:أنه يعتبر عدم إبلاغ هذا الأمر بمثابة عدم إبلاغ أصل الدين، وأساس الرسالة، "وان لم تفعل فما بلغت رسالته" الأمر الذي يعني: العودة إلى نقطة الصفر، والشروع منها، وحتى لو انتهى ذلك إلى خوض حروب في مستوى بدر، وأحد والخندق، وسواها من الحروب التي خاضها المسلمون ضد المشركين من أجل تثبيت أساس الدين وإبلاغه.

ومن الواضح لهم: أن ذلك سوف ينتهي بهزيمتهم وفضيحتهم، وضياع كل الفرص، وتلاشي جميع الآمال في حصولهم على امتياز يذكر، أو بدونه، حيث تكون الكارثة بانتظارهم، حيث البلاء المبرم، والهلاك والفناء المحتّم.

فآثروا الرضوخ إلى الأمر الواقع، والإنحناء أمام العاصفة، في سياسة غادرة وماكرة. ولزمتهم الحجة، بالبيعة التي أخذت منهم له "عليه السلام" في يوم الغدير.

وقامت الحجة بذلك على الأمة بأسرها أيضاً.

ولم يكن المطلوب أكثر من ذلك. ثم كان النكث منهم لهذه البيعة، وذلك بعد وفاة النبي "صلى الله عليه وآله وسلم"، وإحساسهم بالأمن، وبالقوة. "فمن نكث فإنما ينكث على نفسه".

(سورة الفتح الآية ١٠

).

"وليحملن أثقالهم، واثقالاً مع أثقالهم وليسألنّ يوم القيامة عما كانوا يفعلون".

(سورة العنكبوت الآية ١٣

).

تذكير ضروري: الورع والتقوى قد يدور بخلد بعض الناس السؤال التالي: إنه كيف يمكن أن نصدق أن يقدم عشرات الألوف من الصحابة على مخالفة ما رسمه النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" لهم في أمر الخلافة والإمامة. وهم أصحابه الذين رباهم على الورع والتقوى، وقد مدحهم الله عز وجل في كتابه العزيز، وذكر فضلهم، وهم الذين ضحوا في سبيل الله هذا الدين، وجاهدوا فيه بأمواله وأنفسهم!!

ونقول في الجواب :

إن ما يذكرونه حول الصحابة أمر مبالغ فيه. وذلك لأن الصحابة الذين حجوا مع النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" قبيل وفاته، وإن كانوا يعدون بعشرات الألوف.

ولكن لم يكن هؤلاء جميعاً من سكان المدينة، ولا عاشوا مع النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" فترات طويلة، تسمح له بتربيتهم وتزكيتهم وتعليمهم وتعريفهم على أحكام الإسلام، ومفاهيمه.

بل كان أكثرهم من بلاد أخرى بعيدة عن المدينة أو قريبة منها وقد فازوا برؤية النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" هذه المرة، وقد يكون بعضهم قد رآه قبلها أو بعدها بصورة عابرة أيضاً وقد لا يكون رآه.

وقد تفرق هؤلاء بعد واقعة الغدير مباشرة، وذهب كل منهم إلى أهله وبلاده. ولعل معظمهم- بل ذلك هو المؤكد- قد أسلم بعد فتح مكة، وفي عام الوفود- سنة تسع من الهجرة: فلم يعرف من الإسلام إلا إسمه، ومن الدين إلا رسمه مما هو في حدود بعض الطقوس الظاهرية والقليلة. ولم يبق مع رسول الله بعد حادثة الغدير، إلا أقل القليل من الناس ممن كان يسكن المدينة، وقد يكونون ألفين أو أكثر، وربما دون ذلك أيضاً.

وقد كان فيهم العدد من الخدم والعبيد، والأتباع، بالإضافة إلى المنافقين والذين مردوا على النفاق ممن أخبر الله عن وجودهم، وأنهم كانوا من أهل المدينة، ومن البلاد المجاورة لها.

ولم يكن رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" يعلمهم بصورة تفصيلية، وكان الله سبحانه هو الذي يعلمهم.

هذا إلى جانب فئات من الناس، من أهل المدينة نفسها، كانوا لا يملكون درجة كافية من الوعي للدين، وأحكامه ومفاهيمه، وسياساته، بل كانوا مشغولين بأنفسهم وملذاتهم وتجاراتهم، فإذا رأوا تجارة أو لهو انفضوا إليها وتركوا النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" قائماً.

وقد تعرض كثير من الناس منهم لتهديدات النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" بحرف بيوتهم، لأنهم كانوا يقاطعون صلاة الجماعة التي كان يقيمها رسول الله "صلى الله عليه وأله وسلم" بالذات، كما أنه قد كان ثمة جماعة

اتخذت لنفسها مسجداً تجتمع فيه، وتركت الحضور في جماعة المسلمين، وهو ما عرف بمسجد الضرار، وقد هدمه "صلى الله عليه وآله وسلم"، كما هو معروف.

وتكون النتيجة هي أنه لا يبقى في ساحة الصراع والعمل السياسي إلا أهل الطموحات، وأصحاب النفوذ من قريش، صاحبة الطول والحول في المنطقة العربية بأسرها. بالإضافة إلى افراد معدودين من غير قريش أيضاً.

فكان هؤلاء هم الذين يدبرون الأمور ويوجهونها بالإتحاد الذي يصب في مصلحتهم، ويؤكد هيمنتهم، ويحركون الجماهير ب

أساليب متنوعة، أتقنوا الاستفادة منها بما لديهم من خبرات سياسية طويلة. فكانوا يستفيدون من نقاط الضعف الكثيرة التي كانت لدى السذج والبسطاء، أو لدى غيرهم مما لم يستحكم الإيمان في قلوبهم بعد، ممن كانت تسيرهم الروح القبلية، وتهيمن على عقلياتهم وروحياتهم المفاهيم والرواسب الجاهلية. كما أن اولئك الذين وترهم الإسلام- أو قضى على الإمتيازات التي لا يستحقونها، وقد استأثروا بها لأنفسهم ظلم وعلوا- كانوا يسارعون إلى الإستجابة إلى أي عمل يتوافق مع احقادهم، وينسجم مع مشاعرهم وأحاسيسهم الثائرة ضد كل ما هو حق وخير، ودين وإسلام. وهذا هو ما عبر عنه رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم" حينما ذكر: أن تأخيره إبلاغ أمر الإمامة بسبب أنه كان يخشى قومه، لأنهم قريبو عهد بجاهلية، بغيضة ومقيتة، لا يزال كثيرون منهم يعيشون بعض مفاهيمها، وتهيمن عليهم بعض اعرافها.

وهكذا يتضح: أن الأخبار الواعين من الصحابة، مهما كثر عددهم فإن الآخرين هم الذين كانوا يقودون التيار، بما يتهأ لهم من عوامل وظروف فكان أن تمكنوا- في المدينة التي لم يكن فيها سوى بضعة ألوف من الناس، قد عرفنا بعض حالاتهم- من صرف الأمر- أمر الخلافة بعد رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم"- عن أصحابه الشرعيين، إلى غيرهم حسبما هو مذكور ومسطور في كتب الحديث والتاريخ..

خلاصة وبيان وبعد ما تقدم، فإنه يصبح واضحاً أن الرسول الأكرم "صلى الله عليه وآله وسلم" كان يواجه عاصفة من التحدي، والإصرار على إفشال الخطط الإلهية، بأي ثمن كان، وبأي وسيلة كانت!

وأن التدخل الإلهي والتهديد القرآني هو للعناصر التي اثارت تلك العاصفة، وإفهامهم: أن إصرارهم على التحدي، يوازي في خطورته وفي زيف نتائجه، وقوفهم في وجه الدعوة الإلهية من الأساس- نعم إن هذا التدخل- هو الذي حسم الموقف، ولجم التيار، لا سيما بعد أن صرح القرآن بكف من يتصدى، ويتحدى، وتعهد بالحماية والعصمة له "صلى الله عليه وآله وسلم"، فقال: "وإن لم بفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين".

(سورة المائدة الآية ٦٧

).

وإذا كان الله سبحانه هو الذي سيتصدى لكل معاند وجاحد، فمن الواضح:

أنه ليس بمقدور أحد أن يقف في وجه الإرادة الإلهية، فما عليهم إلا أن يبلغ أن ينسجموا من ساحة التحدي، من أجل أن يقيم الله حجته، ويبلغ الرسول "صلى الله عليه وآله وسلم" دينه ورسالته.

وليبوؤاهم بإثم المكر والبغي، وليحملوا وزر النكث والخيانة... والله لا يهدي كيد الخائنين.

دراسة الحدث في حدود الزمان والمكان

ونحن في نطاق فهمنا لموقف النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" في حجة الوداع في منى وعرفات، ومنع قريش له من نصب على "عليه السلام" إماماً لأمة، نسجل النقاط التالية:

١ ـ يوم عرفة هو يوم عبادة ودعاء وابتهال، وانقطاع إلى الله، سبحانه، ويكون فيه كل واحد من الناس منشغلاً بنفسه، وبمناجاة ربه، لا يتوقع في موقفه ذاك أي نشاط سياسي عام، ولا يخطر ذلك على بال.

فإذا رأى أن النبي الأكرم "صلى الله عليه وآله وسلم" يبادر إلى عمل من هذا القبيل، فلا بد وأن يشعر: أن هناك أمراً بالغ الخطورة، وفائق الأهمية، فينشد لسماع ذلك الأمر والتعرف عليه، ويلاحق جزئياته بدقة ووعي، وبانتباه فائق.

٢ ـ لماذا في موسم الحج

وإذا كان موسم الحج هو المناسبة التي يجتمع فيها الناس من مختلف البلاد، على اختلاف طبقاتهم، وأجناسهم، وأهوائهم، فإن أي حدث متميز يرونه ويشاهدونه فيه لسوف تنتشر أخباره بواسطتهم على أوسع نطاق، فكيف إذا كان هذا الحدث يحمل في طياته الكثير من المفاجآت، والعديد من عناصر الإثارة، وفيه من الأهمية ما يرتقي به إلى مستوى الأحداث المصيرية للدعوة الإسلامية بأسرها.

٣ ـ وجود الرسول أيضاً كما أن وجود الرسول "صلى الله عليه وآله وسلم" في موسم الحج، لسوف يضفي على هذه المناسبة المزيد من البهجة، والإرتياح، ولسوف يعطي لها معنى روحياً أكثر عمقاً، وأكثر شفافية وسيشعرون بحساسية زائدة تجاه أي قول وفعل يصدر من جهته "صلى الله عليه وآله وسلم"، وسيكون الدافع لديهم قوياً لينقلوا للناس مشاهداتهم، وذكرياتهم في سفرهم الفريد ذاك.

كما أن الناس الذين يعيشون في مناطق بعيدة عنه "صلى الله عليه وآله وسلم"، ويشتاقون إليه، لسوف يلذ لهم سماع تلك الأخبار، وتتبعها بشغف، وبدقة وبانتباه زائد، ليعرفوا كل ما صدر من نبيهم، من: قول، وفعل، وتوجيه، وسلوك، وأمر، ونهين وتحذير، وترغيب وما إلى ذلك.

٤ ـ الذكريات الغالية وكل من رافق النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" في هذا السفر العبادي، لسوف يحتفظ في ذاكرته بذكريات عزيزة وغالية على قلبه، تبقى حية غضبة في روحه وفي وجدانه، على مدى الأيام والشهور، والأعوام والدهور، ما دام أن هذه هي آخر مرة يرى فيها رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم"، أعظم وأكرم، وأغلى رجل وجد، ويوجد على وجه الأرض.

وحين تتخذ العلاقة بالحديث بعداً عاطفياً، يلامس مشاعر الإنسان، وأحاسسيه، فإنها تصبح اكثر رسوخاً وحيوية، وابعد أثراً في مجال الإلتزام والموقف.

٥ ـ الناس أمام مسؤولياتهم

وبعد أن عرفنا أنه "صلى الله عليه وآله وسلم" قد اختار الزمان، ليكون يوم العبادة والإنقطاع إلى الله سبحانه- يوم عرفة- والمكان، وهو نفس جبل عرفات، ثم اختار الخصوصيات والحالات ذات الطابع الخاص، ككونها أخر حجة للناس معه، حيث قد أخبر الناس:

أن الأجل قد أصبح قريباً.

ثم اختار أسلوب الخطاب الجماهيري، لا خطاب الأفراد والأشخاص، كما هو الحال في المناسبات العادية،-إذا عرفنا ذلك، وسواه- فإنه يصبح واضحاً: أنه "صلى الله عليه وآله وسلم" قد أراد أن يضع الأمة امام مسؤولياتها، ليفهمها: أن تنفيذ هذا الأمر يقع على عاتقها جميعاً، فليس لأفراد أن يعتذروا بأن هذا أمر لا يعنيهم، ولا يقع في دائرة واجباتهم، كما أنهم لا يمكنهم دعوى الجهل بأبعاده وملابساته، بل الجميع مطالبون بهذا الواجب، ومسؤولون عنه، وليس خاصاً بفئة من الناس، لا يتعداها إلى غيرها، وبذلك تكون الحجة قد قامت على الجميع، ولم يبق عذر لمعتذر، ولا حيلة لمتطلب حيلة.

٦ ـ احتكار القرار وهذه الطريقة في العمل قد أخرجت القضية عن احتكار جماعة بعينها، قد يروق لها أن تدعي: أنها وحدها صاحبة الحل والعقد في هذه المسألة- أخرجها عن ذلك لتصبح قضية الأمة بأسرها، ومن مسؤولياتها التي لا بد وأن تطالب، وتطالب بها، فليس لقريش بقد هذا، ولا لغيرها: أن تحتكر القرار في أمر الإمامة والخلافة، كما قد حصل ذلك بالفعل.

ولنا أن نعتبر هذا من أهم إنجازات هذا الموقف، وهو ضربة موفقة في مجال التخطيط لمستقبل الرسالة، وتركيز الفهم الصحيح لمفهوم الإمامة لدى جميع الأجيال، وعلى مر العصور.

وقد كان لا بد لهذه القضية من أن تخرج من يد أناس يريدون أن يمارسوا الإقطاعية السياسية والدينية، على أسس ومفاهيم جاهلية، دونما اثارة من علم، ولا دليل من هدى وإنما من منطلق الأهواء الشيطانية والأطماع الرخيصة، والأحقاد المقيتة والبغيضة.

٧ ـ تساقط الاقنعة ولعل الإنجاز الأهم هنا هو: أنه "صلى الله عليه وآله وسلم" قد استطاع أن يكشف زيف المزيفين، وخداع الماكرين، ويعريهم أمام الناس، حتى عرفهم كل أحد، وبأسلوب يستطيع الناس جميعاً على اختلاف مستوياتهم وحالاتهم ودرجاتهم في الفكر، وفي الوعي، وفي السن، وفي الموقع، وفي غير ذلك من أمور أن يدركوه ويفهموه... فقد رأى الجميع: أن هؤلاء الذين يدعون: أنهم يوقرون رسول الله ويتبركون بفضل وضوئه، وببصاقه، وحتى بنخامته، وأنهم يعملون بالتوجيهات الإلهية التي تقول:

"لا تقدموا بين يدي الله ورسوله". (سورة الحجرات الآية ١

).

"لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض". (سورة الحجرات الآية ٢

).

"ما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا". (سورة الحشر الآية ٧

).

"أطيعوا الله وأطيعوا الرسول". (سورة النساء الآية ٥٩

).

وغير ذلك من آيات تنظم تعاملهم، وتضع الحدود، وترسم معالم السلوك معه "صلى الله عليه وآله وسلم"، مما يكون الفسق والخروج عن الدين، في تجاهله وفي تعديه.

هذا إلى جانب اعترافهم بما له "صلى الله عليه وآله وسلم" من فضل عليهم وأياد لديهم، فإنه هو الذي أخرجهم- بفضل الله: من الظلمات الى النور، ومن الضلال إلى الهدى، وأبدلهم الذل بالعز، والشقاء بالسعادة، والنار بالجنان.

مع أنهم يدعون: أنهم قد جاؤا في هذا الزمان الشريف، إلى هذا المكان المقدس- عرفات- لعبادة الله سبحانه وطلب رضاه، منيبين إليه سبحانه، ليس لهم في حطام الدنيا، وزخارفها، مطلب ولا مأرب.

ولكن مع ذلك كله.. فقد رأى الجميع بأم أعينهم: كيف أن حركة بسيطة منه "صلى الله عليه وآله وسلم" قد أظهرتهم على حقيقتهم، وكشفت خفي مكرهم، وخادع زيفهم، ورأى كل أحد كيف أنهم: لا يوقرون رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم"، ويرفعون أصواتهم فوق صوته، ويجهرون له بالقول أكثر من جهر بعضهم

لبعضهم، ويعصون أوامره، كل ذلك رغبة في الدنيا، وزهداً في الآخرة،وطلباً لحظ الشيطان، وعزوفاً عن الكرامة الإلهية ورضى الرحمن.

٨ ـ وإذا كان هؤلاء لا يتورعون عن معاملة نبيهم بهذا الأسلوب الوقح والقبيح، فهل تراهم يوقرون من هو دونه، في ظروف وحالات لا تصل إلى حالاتهم معه "صلى الله عليه وآله وسلم"، ولا تدانيها؟!.

وماذا عسى أن يكون موقفهم ممن طفحت قلوبهم بالحقد عليه، ولهم قبله ترات وثارات من قتلهم على الشرك من اسلافهم، كعلى بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه.

وهكذا.. فإنه يكون "صلى الله عليه وآله وسلم" قد أفقدهم، وأفقد مؤيدهم كل حجة، وحجب عنهم كل عذر، سوى البغي والإصرار على الباطل، والجحود للحق، فقد ظهر ما كان خفياً، وأسفر الصبح لذي عينين، ولم يعد يمكن الإحالة، على المجهول، بدعوى: أنه يمكن أن يكون قد ظهر لهم ما خفي علينا.

أو أنهم- وهم الأتقياء الأبرار- لا يمكن أن يخالفوا رسول الله "صلى الله عليه وآله وسلم"، ولا يبطلوا تدبيره، ويخونوا عهده، وهو لما يدفن.

أو أن من غير المعقول: أن تصدر الخيانة من أكثر الصحابة؟! أو أن يسكتوا بأجمعهم عليها.

وما إلى ذلك من أساليب يمارسها البعض لخداع السذج والبسطاء ومن لا علم لهم بواقع أولئك الناس، ولا بمواقفهم.

فإن كل هذه الدعاوى عد سقطت، وجميع تلكم الأعذار قد ظهر زيفها وبطلانها، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر.

٩ ـ القرار الالهي الثابت والذي ساهم في قطع كل عذر، وبوار كل حجة: أن ذلك قد كان منهم في الأيام الأخيرة من حياته "صلى الله عليه وآله وسلم"، بحيث لم يبق مجال لدعوى الإنابة والتوبة، أو الندم على ما صدر منهم، ولا لدعوى تبدل الأوضاع والأحوال، والظروف والمقتضيات، ولا لدعوى تبدل القرار الإلهي النبوي.

١٠ ـ التهديد والتآمر

هذا.. وقد تقدم: أن هؤلاء أنفسهم حينما رأوا جدية التهديد الإلهي، قد سكتوا في المرحلة اللاحقة، حينما قام النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" ليعلن إمامة علي "عليه السلام" في غدير خم، فلم نجد منهم أيه بادرة خلاف، إلا فيما ندر من همسات عابرة، لا تكاد تسمع.

وقد بادر هؤلاء أنفسهم الى البيعة له "عليه السلام". وأن كانوا قد أسروا وبيتوا ما لا يرضى الله ورسوله من القول والفعل، والنية والتخطيط. الذي ظهرت نتائجه بعد وفاة النبي "صلى الله عليه وآله وسلم"، وهو حينما تصدى بعضهم لمنع النبي الأكرم "صلى الله عليه وآله وسلم" من كتابة الكتاب بالوصية لعلي "عليه السلام" حينما كان النبي "صلى الله عليه وآله وسلم" على فراش المرض، في ما عرف برزية يوم الخميس! وقال قائلهم: إن النبي ليهجر!

أو: غلبه الوجع!.

(الإيضاح: ص ٣٥٩، وتذكرة الخواص: ٦٢، وسر العالمين ٢١، وصحيح البخاري ج ٣، ص ٦٠ و ج ٤، ص ١٧٣ و ج ١، ص ٢٢-٢١ و ج ٢، ص ١١٥، والمصنف للصنعاني ج ٦، ص ٥٧ و ج ١٠، ص ٣٦١، وراجع ج ٥، ص ٤٣٨، والإرشاد للمفيد ص ١٠٧ والبحار ج ٢٢، ص ٤٩٨ وراجع: الغيبة للنعماني ص ٨٢-٨١ وعمدة القاري ج ١٤ و ص ٢٩٨ وفتح الباري ج ٨، ص ١٠١ و ١٠٢ والبداية والنهاية ج ٥، ص ٢٢٧، والبدء والتاريخ ج ٥ ص ٥٩، والملل والنحل ج ١، ص ٢٢، والطبقات الكبرى ج ٢، ص ٢٤٤، وتاريخ الأمم والملوك ج ٣، ص ١٩٣-١٩٢، والكامل في التاريخ ج ٢، ص ٣٢٠، وأنساب الأشراف ج ١، ص ٥٦٢، وشرح النهج للمعتزلي ج ٦، ص ٥١، وتاريخ الخميس ج ٢، ص ١٦٤، وصحيح مسلم ص ٧٥، ومسند أحمد ج ١، ص ٣٥٥ و ص ٣٢٤ و ص ٣٢٥ والسيرة الحلبية ج ٣، ص ٣٤٤، ونهج الحق: ص ٢٧٣، والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ قسم ٢، ص ٦٢.

راجع: حق اليقين ج ١، ص ١٨٢-١٨١ ودلائل الصدق ج ٣ قسم ١، ص ٧٠-٦٣، والصراط المستقيم ج ٣ و ٦، والمراجعات: ٣٥٣، والنص والإجتهاد: ١٦٣-١٤٩

).

١١- الخير في ما وقع وأخيراً.. فإن ما جرى في عرفة، ومنى، وإظهار هؤلاء الناس على حقيقتهم، وما تبع ذلك من فوائد وعوائد أشير اليها، قد كان ضرورياً ولازماً، للحفاظ على مستقبل الدعوة، وبقائها، فقد عرفت الأمة الوفي من المتآمر، والمؤمن الخالص، من غير الخالص، وفي ذلك النفع الكثير والخير العميم.

"فعسى أن تكرهوا شيئاً، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً". (سورة النساء الآية ٩١٩).

وصدق الله ورسوله، وخاب من افترى... "فمن نكث فإنما ينكث على نفسه". (سورة الفتح الآية ١٠

).

والحمد لله والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

كلمة أخيرة

وإنني في نهاية هذا البحث أشكر القارئ الكريم على حسن متابعته لي، وأود أن أذكره بأن هذا البحث ما هو إلا خطوة أولى على طريق الكشف عن الحقيقة، وعن الظروف التي أحاطت بهذه القضية الحساسة جداً.

ويبقى المجال مفتوحاً أمام الباحثين والمحققين ليتحفونا بالمزيد من ثمار جهودهم، التي من شأنها أن تعرفنا على المزيد مما شاءت له السياسات الظالمة أن ينكتم وينستر، أو أن يتلاشى، وينعدم ويندثر. مع التأكيد على أن هذا البحث لا يغني عن المراجعة إلى ما كتبه علماؤنا الأبرار رضوان الله تعالى عليهم في مجال استخراج نصوص هذا الحدث من مئات المصادر، الموثوقة لدى أهل السنة، فضلاً عما ورد منها في كتب الشيعة ثم في مجال استنطاق الحدث في اشاراته ودلالاته، وفيما يرتبط بظروفه وحالاته ثم في بواعثه وغاياته، فإنهم رضوان الله تعالى عليهم، قد بذلوا من جهدهم الغاية، وأتوا بما فيه مقنع وكفاية، لمن أراد الرشد والهداية.

وفقنا الله للسير على هدى الإسلام القويم، ونسأله تعالى أن يقينا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن يأخذ بيدنا في سبيل الخير والصلاح، والنجاح والفلاح، إنه خير مأمول، وأكرم مسؤول.

قم المشرفة- ذوالحجة- سنة ١٤١٠ هـ. ق.

جعفر مرتضى العاملي